رواية

الربيع الأسود

أحمد محمد إسماعيل

ترجمة

مكرم رشيد الطالباني

توطئة

هذه رواية كوردية تتحدث عن المأساة التي واجهت الشعب الكوردي في منطقة كرميان أي المنطقة التي تتسم طقسها بالحرارة صيفاً والبرودة شتاء والواقعة قسم منها في محافظة كركوك وقسم منها في محافظة ديالى وقسم منها في محافظة السليمانية في حقبة النظام الدكتاتوري والتي تم فيها إرتكاب جرائم الإبادة الجماعية وجرائم ضد الإنسانية بإسم الدين والدين من النظام ومن رأس النظام براء.

لقد أرتأينا ترجمة هذه الرواية بناء على إقتراح من المؤلف ومن أجل أن يطلع الأخوة قراء العربية على ما عاناه سكان منطقة كرميان وغيرها من مناطق كوردستان العراق من مآسٍ وويلات وحروب وإبادة وتشريد وقتل ووأد على أيدي أعتى الطغاة في العصر الحديث، ويعرفوا لماذا ناضل هذا الشعب العريق طوال تاريخه من أجل نيل حريته على أرض آبائه وأجداده ويكسب تعاطف إخوانه من حوله في التصدي لمخططات الإستعمار والمحتلين الذين مزقوا كيانه وشوهوا تاريخه.

عسانا أستطعنا نقل جزء يسير من تلك المآسي التي عانى منها الكورد لإخوتنا القراء والله من وراء القصد.

المترجم

لأن اللحظات السعيدة لربيع كرميان قصيرة ولا تستغرق طويلاً، لذا يعتبر ربيعاً بالإسم فقط، غير أنه ومنذ أول أمس بدأت تهبُ عاصفة ترابية مزعجة، بدأ الغبار والتراب بالإنهمار، كان غباراً وتراباً دقيقاً كالكحل، إن لون تراب كرميان هذا حنيٌ مائل إلى الحمرةِ قليلاً ـ ورغم قصر الربيع هذا العام فقد غدا ناراً ستلتهم الأخضر واليابس. بعد ثلاثة أيام من إنهمار الغبار والتراب سكنت الأتربة غير أن الغبار والذرات بدأت تعتصم في الفضاء حين تتساقط عليها أشعة الشمس تبدو مائلةً للإحمرار. وكأنك رششتَ السماء بالدماء.. وكانت عربات الزيل والإيفا والمدرعات ما تنفك تنقل طوال تلك الأيام الثلاث النساء والأطفال والشباب والشيوخ والعجزة ومواشي وأغنام القرويين من قرى كرميان.. وفي مساء اليوم الثالث أقبلت سيارة بيكاب مسرعة كانت قد خصصت لهذا الغرض لتقف أمام إحدى مدارس مدينة دوز، ليترجل منها مسلحَان إثنان يرتديان سراويلاً، كانا ينتظران شخصاً يستقل البيكاب، والذي نهض على مهل في البيكاب.. كان يشد رأسه بغطرة شماغٍ. حدّق فيما حوله، كان التراب قد تراكم على رأسه وكتفيه، رغم أنه لم يتعدَّ الأربعين من عمره غير أنه كان يبدو أكبر سناً من ذلك في تلك اللحظة، ومن ثم ترجل من البيكاب. ففتحوا له باب المدرسة الحديدي... كان هناك خلف الباب ممرٌ طويلٌ وكان يتقدمه أحد المسلحَين أما الثاني فقد كان يسير خلفه، يبدو عليهما الشماتة والتشفي. هناك رجال عديدون في الشارع الآخر وأمام المنازل المواجهة أمّا جالسون أو واقفون وهم ينظرون مهمومين، كانوا قد أقبلوا ليواجهوا أحد معارفهم وليعرفوا منه أخبار معارفهم وأقربائهم، وفي هذه اللحظة إرتفع صوتٌ بين الحشود المجتمعة (لقد كان ذلك صابر الحاج جمعة .. لقد إجتاحته هذه الحملة أيضاً! ...) تناهى الصوت إلى مسمعه، وقبل أن يختفي خلف الباب إلتفت إلى الوراء، وكان قد عمد إلى تغطية وجهه كي لا يتعرف إليه أحد (سيعرف والدي الآن. يقلقني جداً أن تعرف أمي...) كان يردد هذا بينه وبين نفسه. كان الممرُّ طويلاً، هناك أبوابُ عددٍ من الغرف على اليمين على طول الممرّ، وأن ضوضاء ما وراء تلك الأبواب تثبت أنها مليئة حتى آخرها.

صابرالحاج جمعة .. إن الشماتة والإبتسامة الصفراء لهذين المسلحَين المرافقين لك، مثلما يزعجانك، فإنك لن تستغرب ذلك لأن هذه الأعمال تبدر من هؤلاء دوماً، وفي الطريق

عندما كنتم في البيكاب كم حاولوا وبذلوا جهوداً كي تخبرهم شيئاً غير أنك لم تتكلم معهم ولم تنبس لهم ببنتِ شفة وكنتَ ترمقهم بنظراتك. كنتَ تكرهم وتعطف عليهم في الوقت عينه ... غرفة، أثنتان، ... ست، أوقفوكَ قبالة الباب السابع. كان أحدهم واقفاً أمام الباب يحمل قائمة، فأدركتَ بأنه ينوي تسجيل إسمك.

ـ ما إسمك؟

ـ صابر الحاج جمعة.

يسترعي إنتباهك الرقم المدون قبالة إسمك 18988.

ـ من سكنة أي قرية؟

إنك من سكنة هذه المدينة، لقد إتجهت إلى تلك السهول منذ عدة سنين، لتمضي في كل قرية بضعة أشهر، ولن تخبرهم بأنك من سكنة هذه المدينة خوفاً على أهلكَ، ولن تخبرهم الحقيقة عن قصد ...

ـ من سكنة قرية كرمك ...

ـ كرمك؟!

قال هذا وهو يرمقك بنظرة، لترد على إحتقاره هذا بإبتسامة كنتَ وحدكَ تدركُ ماذا تعني ... تناهى إلى سمعكَ في هذه اللحظة بكاء بعض الأطفال، كان الممرّ ينعطف يساراً بعد خطوات قليلة وكانت الضوضاء وبكاء الأطفال تصدر من ذلك الإتجاه.. كان الشخص الذي قام بتدوين إسمكَ يرتدي زياً كوردياً بنياً، سلطتَ نظرات عينيكَ على عينيه .. (من الممكن أن يعرفنا ...)، لم تكن ترغب أن يعرفكَ، فأزحتَ وجهكَ وتظاهرتَ بأنكَ تنظر إلى الممرّ، كنتَ تعباً، ولم تكن قد أغمضتَ عينيك منذ ليلتين، كنتَ مجهداً ومضنى، كأن جسدكَ دقّ دقاً وكانت أعصابكَ تنبض نبضاً، وغامت الرؤية لديك، إنهم لا يسمحون لك وإلاّ فإنك كنتَ ستأخذ هنا قبالة هذا الباب قيلولة قصيرة.. كان لا يزال يرمقكَ بنظراته، وقد إرتسمت على شفتيه إبتسامة تشفي وشماتة (ليخزيك الله ويسوّد وجهكَ ..) وجهتَ له هذه الشتيمة مع نفسكَ، وكنتَ على وشك أن تقول له هذه الجملة وجهاً لوجه.. سيفتح لك الباب دون أن يكف عن النظر إليك، وحين فتح لك الباب قرّب رأسه نحو الأمام قليلاً، فشعرت برائحة تفوح من فمه ... وضعتَ قدمكَ في الغرفة، فأستقبلك الزفير الخانق في

الغرفة، وضع إحدى يديه على ظهره كي يستطيع أن يغلق الباب، وأغلق الباب خلفك، فوقفتَ... وألقيتَ من مكانكَ نظرة على الغرفة، كانت مليئة، إنهم يقفون على أرجلهم لعدم وجود مكان يستوعبهم، للغرفة نافذتان كبيرتان، أغلقتا بالكارتون، وأن الأشعة الصفراء لأصيل ذلك المساء تتسلل من خلال شقوق الكارتون للداخل، راسمة مستطيلاً مائلاً للحمرة على الجدار المقابل.. إنك تعشق غسق أماسي تلك التلال والهضاب، ولن تنسى في هذه اللحظات غسق أماسي هضاب وسهول كرميان، حين كنتَ تكتب أحياناً الرسائل لأصدقائك في المدينة، كنتَ تتحدث عن جمال طبيعة كرميان، وفي الرسالة الأخيرة التي كتبتها لصديقك ظاهر، والتي لم تصل إليه بعدُ، لأنكَ أرسلتها له قبلَ بضعة أيام مع والدتك .. (إن أشعة الشمس عند غسق أماسي هذه الديار حين تسقط على الأتربة الحمراء تمنحها لوناً خاصاً ليس في وسع فرشاة أي فنان كان أن يبتدع ذلك اللون... حين تتمعن فيه وتتأمله يثير فيكَ هموماً ومشاعر غريبة، إني أدعي بأن ذلك اللون الجميل الفريد والمثير المائل للصفار لهو آهات وتنهدات قاطني المنطقة ..). تضم الغرفة محجوزين في عمر عشر سنين وصولاً إلى الشيوخ والعجزة، كأنهم كانوا ينتظرون أمراً ما حيث رفعوا رؤوسهم وألتفتوا حين صدر صوت من الباب، وكفوا عن الضوضاء والمحادثة، وقد بدا شبح الموت على وجوههم، ويتقطر من نظراتهم الخوف والخيبة، من بإمكانه أن يتحمل نظراتٍ كهذه، نظراتٍ كانت عبارة عن صراخ ورجاء.. وأنت صابر الحاج جمعة أصبحت الآن واحداً من هؤلاء... لمن ستلتجأون؟ وفي رقبة من ستضعون تبعة جرائركم؟ .. ليس في وسعكم أن تقفوا في وجه أحدٍ إلاّ أن توجهوا زفراتكم الباردة في وجه من تسببوا لكم هذه المصيبة..

وفي رسالة أخرى أرسلتها العام الماضي لأحد أصدقائكَ كنتَ قد توقعتَ كارثة كهذه، لقد تحققت لكن لم تتخيل أمراً كهذا... خفضتَ رأسكَ، مسدتَ وجهكَ بإحدى كفيك. ليست الوجوه غريبة عليك، لكنك لا تستطيع أن تتعرف على أحدهم بعدُ، كأن أهل كرميان جميعاً هم من نسل رجل واحد، يتشابهون في سيمائهم وسحناتهم، فيما مضى حين كنتَ تعرج على مدن كويستان تلك وكنتَ تلتقي أحداً من سكنة كرميان وكنتَ تخبر زملاءك بأن هذا الرجل من سكنة مضاربنا، كانوا يسألون كيف تعرف ذلك، كنتَ تقول أعرفهم من سيمائهم ودمائهم... وفي هذه اللحظة لم يكن يهمك أن تعرف أحداً. يجانبك الحق لأنك

منهكٌ ومتعبٌ، لم يغمض لكَ جفنٌ منذ ليلتين، ألقيتَ بنظركَ تبحثُ عن مكان، مكانٍ تجلس فيه القرفصاء وتغمض جفنيكَ، لقد غدت عيناكَ بحيرتين من الدماء، لازال للمستطيل المائل للأحمر على الجدار بقية لكنه أرتفع قليلاً. تراءى لكَ في الجزء القصي من الغرفة شبحٌ ما، لقد نهض وبدأ يتجه نحوك، حتى وصل إليكَ مضت فترة كأنها عام، ودون أن ينبس ببنت شفة أمسك بساعدكَ، بدوركَ لم تنبس ببنت شفة بل تبعته. كنتَ تتمنى ذلك، لقد عرفته. (أعرفه) قلت ذلك سرّكَ، أنت لا تقول شيئاً، بدوره لن يبادر إلى قول شيء. تخطوان بين الزحام وتجدان موضعاً لقدميكما بصعوبة بالغة. كان هناك من يزيح نفسه قليلاً، وكان هناك من لا يحرك ساكناً وهو صامتٌ. وكانت أقدامكما تصطدم بأرجلهم وأحواضهم وأكتافهم دون أن يتحركوا، خفتت الضوضاء مرة واحدة، فأجلسكَ عند الزاوية القصية... كان يعرفك جيداً، لن تجرؤ أن تلتفتَ إليه .. (آه حمه غريب إبن العم منصور.. لم تكن هذا الصباح في القرية ...). لم تسأله عن أحوال عائلته ... أسندتَ ظهركَ للجدار لتسحبَ رجليكَ وتجعلهما بمثابة محدة لساعديكَ، تدلى رأسكَ على صدركَ، بدأت الضوضاء والثرثرة ترتفع من جديد، لكنكَ كنتَ تلج في تفكيرٍ عميقٍ، تبتعد الأصوات رويداً رويداً عن سمعكَ، وكان جفناك يتثاقلان بمرور الوقت.. لم يعد في إستطاعتكَ أن تسيطر عليهما... إن جل سكنة قرية (قلا) واقفون حولك، ينتظرون ما تتفوه به.. تقرأ في سيمائهم علامات التوبيخ والعتب والغضب ... لماذا؟ لماذا تركونا؟ ... ماذا بإمكاننا أن نفعله في هذه السهول المترامية؟ ... إلى أين سنتوجه وأي منطقة بإمكانها أن تخبئنا؟ لماذا لم تسمحوا لنا قبل فوات الأوان أن نتوجه إلى إحدى المدن لنختبيء فيها؟؟ لماذا جرجرتم أيدي بلد آخر وأتيتم به وقد أعتبروا ذلك حجة لديهم، ويفعلون بنا كل هذا نتيجة لذلك، شفاههم تنطق بأسئلة عديدة (لماذا).. تستعد لقول شيء ما، لا يأتيك شيء.. تصرخ وتصرخ ولن يخرج صوتك.. يفتح الناس من حولك أفواههم، يبدو أنهم يصرخون لكنك لن تسمع أصواتهم ... هناك بضع نساء يجهشن بالبكاء ولن يسمع صوت بكائهن... هناك من يعضون شفاههم دون أن ينبسوا ببنت شفة .. وفجأة يسمع صوت إنفجار، إثنان، ثلاثة إنفجارات، فيتفرق الجميع كأسراب الطيور كل في إتجاه ما ... لن يكون في وسع النساء أخذ الممتلكات معهن بل يحتضنن أطفالهن الرضع فقط ويولين

الأدبار... تتطلع حولكَ لا تجد أحداً بالقرب منكَ ... يتناهى لمسمعكَ صوت بكاء طفلٍ، يقف وحيداً في رأس الزقاق في الجهة الأخرى منكَ وهو يبكي .. تسرع لتحتضنه وتبعده، ورغم محاولاتكَ فإنك لن تصلَ إليه... بدوركَ تجري وفجأة... تنزلق قدميكَ عند حافة هاوية سحيقة وتتهاوى إلى الهاوية ولا يزال يتناهى إلى مسمعكَ صوت بكاء الطفل أثناء سقوطكَ... فتجد نفسكَ على صخرةٍ كأنكَ ريشة خفيفة تحيط بها ثعابين صغيرة لا تعد ولا تحصى وهي تحاول تسلق الصخرة، لا تعرف كيف تنقذ نفسكَ وأنت لا تتسلح بشيء.. وفجأة تقفز من على الصخرة ليصطدم رأسك بصخرة، غير أن صوت بكاء الطفل لا يزال يرن في مسمعك...تصيخ السمع... والطفل يقول أثناء بكائه لماذاااااااااا... تجفل، لتجد المصباح الخافت لسقف الغرفة وقد أضاء الغرفة بنور باهت، تتلفتْ حولكَ، لن تجد أحداً من سكنة قرية (قلا) عدا حمه غريب ... إلى أين تم تسفيرهم؟ لا ترى وجوههم بوضوح، إستسلم بعضهم للنوم، والبعض الآخر يواجهونكَ بظهورهم، فيما ألتم عددٌ منهم هناكَ وهم يتهامسون بينهم، وكان الكارتون الذي غُلّفت به النافذة المقابلة قد تمزق بمقدار شبرين طولاً وأصبعين عرضاً، لذا فقد كانت تُشاهَد من خلاله أنوار المنازل المقابلة لها، وكان يمرّ أحياناً أمامها أحد المارّة ليحجبَ بصيص النور، أردتَ أن تكلّمَ حمه غريب، فمنذ المساء لم يبادر إلى التحدث معكَ ولم تبادر بدوركَ للتحدث معه ... (يمكنُ أنهم أخبروه ... يجب عليّ أن أحفظ لساني من الزلل وعدم إفشاء أي شيء له في الوقت الراهن ...) أُطلقتْ عدة عبارات نارية عن بعدٍ ... لا بل صلية أخرى.. وفي هذه اللحظة وضع حمه غريب أمامك قطعة خبز وحفنة من التمر دون أن تطلب منه ذلك.

ـ (أدركُ إنكَ تعبٌ ومضنى فلم أرغب أن أوقظكَ من نومك...). ويتفوه بهذه الكلمات دون أن ينظر إليكَ. (كلْ تلك القطعة من الخبز .. كلْ ... فقد حدث ما حدث...).

كأنه يتحدث إلى نفسه قال ذلك كلمة كلمة على مهله، تريد بدوركَ أن تقول شيئاً، لا تستطيع التعبير عن شيء وماذا تقول له؟ بماذا وكيف تدعي له الصبر والسلوان؟ صابر كيف كنتَ هكذا، رغم إنكَ لم تكن من أنصار أي طرف لكنكَ حين كنتَ تعرج على أي قرية كنتَ موضع ثقة وإستشارة هؤلاء الناس. وكانوا ينظرون إلى ما تقوله عند حدوث المشاكل والملمات، غير إنك تود أن تقول له شيئاً يخفف عنه قليلاً لكن التعبير يخونك.

ـ (في هذا الصباح حين عدتُ إلى قلا لم أجدكَ هناك، وعندما وقعتِ الواقعة تلفتُّ فلم أجدكَ؟! ... بادره إلى هذا السؤال بصوت خفيض. وكان حمه غريب يقول وكأن الكلمات تتجمد في حلقه.

ـ (كنتُ في أطراف روخانة .. فمعظم هؤلاء من سكان تلك القرى ...).

كان حمه غريب يمارس نوعاً من التجارة البسيطة، كان يجمع اصواف تلك القرى في موسم جز الصوف حتى يَقدِمَ الشراة من المدن ليشتروا منه، وكان يشتري الخضار في الصيف من القرى القريبة من (ئاوة سبى) ويأخذها لهضبة زنكنة، ويشتري البيض من هناك ويأتي به للمدينة، وعند عودته كان يشتري بأثمانه تمراً ودبساً ليجول بها في كرميان... وكان يجمع جل أخبار المنطقة عند جولاته هذه في جعبته وينشرها في تلك القرى التي يمر بها، وكانوا يتوجهون إلى حمه غريب للإستفسار ومعرفة أخبار أي شخص بقي على قيد الحياة ومن رحل من سكنة تلك القرى، وكان بدوره يخبرهم بالحقيقة دون لف ودوران، أو كان يقول لهم (أصبروا حتى الغد)، كان ينشر أخبار التعازي والأعراس، يُبَلِّغُ الأقرباء والمعارف والقرى بتحيات وأخبار مرض وشفاء أقربائهم... لا أتذكر من ذا الذي أدعى مرة: من ذا الذي يدعي أن ليس للكورد وكالة أنباء!! وماذا يفعل حمه غريب. ومنذ ذلك اليوم يطلقون عليه وكالة أنباء كرميان ...

(أنه لأمر جيد حين لم يكن هو في المنزل ذلك الصباح ولا تعرف أخبار أسرته ... لماذا لا يتبادر ليسألني عن أخبار أسرته؟ ومنذ أن وصلتُ إلى هنا لم يرفع رأسه! عدا تلك الكلمات القليلة التي تفوه بها، لم يسرد شيئاً حول أفراد أسرته!).

وفجأة بدأ يسأل بهمسٍ:

ـ (هل أتوا بـ ـ كولشن ـ).

من الممكن أنهم اخبروه، قلت هذا بينكَ وبين نفسكَ، ومن ثم بادرته بالسؤال:

ـ (كيف عرفتَ أنهم قد أتوا بـ ـ كولشن ـ؟ أين هي؟).

ـ (كنتُ في ـ داروَسَرة ـ ... فلم يأتوا بنا من هناكَ إلى هنا مباشرة ... أتوا بنا بمعية قوة عسكرية كبيرة وعدد غفير من النساء والأطفال إلى قرية (لفتي آغا)، وحين إجتزنا (ئاوة

سبى) .. ها هناك رأيتُ كولشن، كانت تجلس في عربة زيل وحين لمحتني بدأت تلطم على صدرها وترفع يديها فلم أدرك ماذا كانت تقول).

ـ (إني أعرفُ جيداً ماذا كانت كولشن تريد أن تخبركَ به، أنه لأمر جيد، الأفضل أن لا تعرف، كي لا تصاب في كبدكَ بجرح غائر، الأفضل لك أن تتوقع بأن (شوانه) لا يزال برفقة أمه.. آهٍ من هذا اليوم الذي لا يعرف الأب فيه ماذا حل بفلذة كبده ...).

بدوركَ ترغب أن تقوم بتغيير مسار حديثكما نحو موضوع آخر.

ـ (يدعون أن المكان لا يسعهم هنا لذا فقد قاموا بوضعهم في مكان آخر). وبعد هنيهة صمتٍ قال: (ومن الممكن ألاّ يكونوا هنا...). توجستَ خيفةً من ان يستقدموا أحد سكنة قرية قلا إلى هنا ويخبره عما جرى لـ(شوانه) .. لكنكَ شرعتَ تطمئن نفسك بهذا:

(ما عداي ليس هناكَ من شاهدَ شوانه ...). بدأتَ تقضم قطعة الخبز، ومذاق التمر في فمكَ مرٌّ في وقتٍ تخفض فيه رأسكَ، لن تستطيع بلع اللقمة، تناهى إلى مسعمكَ من جهتكَ هذه بضع أصوات، هناك شخص آخر على مبعدة منك، ورجل عجوز وضع دَميره كوسادة تحت رأسه منكمشاً ومتقوقعاً كطفلٍ وهو يهذي .. لا تفعلي ..حبة .. حبة .. إذهبي .. إذهـ.... هناك بالقرب من النافذة المقابلة لكَ تجد مراهقاً يجلس على ركبتيه وهو يحاول إستراق النظر إلى الخارج من خلال الموضع الممزق من الكارتون، ينظر هنيهة من خلال كوة الكارتون ومن ثم يستدير ويسند ظهره على الجدار .. ويصمت هنيهة، لم ولن يقر له قرار ومن ثم يجلس على ركبتيه ثانية وينظر من خلال كوة الكارتون، كرّر فعلته هذه مرة أو مرتين، ومن ثم أقلع عنها خائباً مسنداً ظهره إلى الجدار... تناهى إلى مسمعك نداء إستغاثة مليئاً بالخيبة (يا إلهي) .. لم تكن تعرف من ذا الذي أطلق هذا النداء ولماذا... يمكن أنه بدوره يعبر عن حزنه وشعوره بالضيق بهذا الشكل، إنه من يدرك جيداً ما هي الحالة النفسية التي يمرّ بها وما هي الهموم التي يرزح تحتها.

(كيف لا يقول ذلك ... من ذا الذي يدركُ كم هو عدد بناته الأسيرات لدى المنافقين وكم هو عدد أطفاله ورضعه المُغيّبين، لذا فإن ألف نداء إستغاثة غير كافٍ...). ها إن النعاس غلب حمه غريب أيضاً.. لكنكَ ورغم تعبكَ وإرهاقكَ لا زلتَ ساهراً ولم يغلبكَ النعاس بعدُ.. لازال الليل في أوله ولن تنتهي ليلةٌ كهذه، أستمرالليل وأستمريتما بدوركما تعاندان

بعضكما، وكنتَ لا تزال تشعر بالدوار وكأنهم ضربوكَ على رأسكَ، لا تعرف كيف تفسر هذه الحالة. يتراءى أمام ناظريكَ زملاؤك، المنطقة، والدتكَ، أمسَ وهذا الصباح المشؤوم واحداً إثر آخر كشريط سينمائي.. ما هذه العاصفة، ما هذا الفيضان العكر الذي وقع فجأة وأجتاح هذه الآلاف المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ والشباب، كان يتذكر تلك الكوارث التي قرأ عنها في الكتب، لم تكن لتفارق ناظريه صور الدماء والرحيل والجثثِ المتكومة فوق بعضها البعض، كان يحاول التفكير في شيء آخر دون أن يستطيع ذلك؟!! لا تعرف ما النتيجة التي تَؤولُ إليها:

(كيف يقومون بإعتقال سكان منطقة بأكملها). لن تفهم هذا. تعصر عقلك، تحاول تذكر جريمة من هذا القبيل، أو إن جرى التطرق إلى فعلٍ كهذا في كتابٍ ما، يماثل هذه الحالة، فإنك لن تهتدي إليه..لن تستطيع قول شيء ولا تدري على من تصب لعناتكَ...

(لماذا يفعلون بنا هكذا!). كرّرت هذه الجملة مرة أو مرتين من بين شفتيكَ بصوتٍ خفيض.. وفي هذا الصباح بادر هؤلاء الناس يسألونكَ السؤال عينه (لماذا)... ألقيتَ بنظركَ على الغرفة، كنتَ تود أن ترى أحداً، من يكون، لم يغلبه النعاس ولم يستغرق في النوم لتقترب منه ... فشاهدت المراهق الذي كان جنب النافذة، كان بدوره لا زال ساهراً مثلكَ لن يغلبه النعاس. رأيته قبل هنيهات وقد تدلى رأسه فوق صدره للحظات، لكنه لم ينم بعدُ وهو واعٍ الآن، والغرفة ساكنة هادئة والجميع نيامٌ، وصمت البعض منهم وهم يحادثون هموهم وتوجساتهم. وفي الخارج لازال يُسمع بين حينٍ وآخر أصوات ضوضاء وأصوات محركات العربات وهي تسير غادية رائحة.. فألتقت نظراتكما. شعرتَ أنه قد إبتسم. ليس هناك من قوةٍ أن يحرم المرء من الإبتسامة والضحك. وها إن الإبتسامة ترتسم على الشفاه حتى في وضع كهذا.. شعرتَ بنوعٍ من الإرتياح والسكينة، وددتَ أن تذهب إليه، يمكن أنه يبحثُ عن رفيق يشاركه الحديث، فنهضتَ من مكانكَ، أدركَ إنكَ ستتوجه إليه، ولم تكن قد وصلتَ بعدُ فأستعدَ بدوره ساحباً قدميهِ ليُعَبِّرَ عن رضاه وسعادته بذلك. فجلستَ القرفصاء قبالته....

ـ (لماذا لا تنام؟).

ـ (لستُ نعساناً).

سلطتَ نظرة عينيكَ في عينه فنكسَ رأسه، كأن رموشه قد كُحِلَتْ (يا .. لقلبكَ الصغير هذا كيف له أن يتحمل مثل هذه الآلام والهموم.. لماذا أستقدموكَ؟ لماذا حشروكَ في هذه الغرفة المظلمة النكدة... من حقكَ أن تحزن ولن يقرّ لك قرارٌ.. إنك ألفتَ تلك السهول المترامية كي تركض وراء فراشة ملونة من تلة إلى أخرى، لماذا حجزوكَ في هذه الغرفة الضيقة؟ ما الخطر الذي يشكله لهم ملاكٌ مثلك ليحبسوك كطيرٍ صغيرٍ في أتون القفص؟ ...) كنتَ تقول هذه الجمل في سرّكَ، فصعقتَ لبعض الوقت.

ـ (ما إسمكَ أيها الذكي؟).

ـ (كرميان).

ـ (نعم ... عزيزي كرميان نعـ ...).

تخاف هنا أن تسأله عن والده وأهله ... فلم يترك لك ذلك.

ـ (منذ أمس وأنا هنا.. فقد قاموا أمس منذ الصباح الباكر بمحاصرة القرية، وقد كنتُ نائماً.. كان من المفروض أن أذهب في ذلك الصباح برفقة والدتي إلى ضفاف روخانة لجلب القصب ..فبدأ إطلاق النار، وسقطت قذيفة على منزل خالتي رعناء، وكأن بيت العم خدر لم ينجو منهم أحدٌ، وبدأ الناس ينفذون بجلدهم، بدورنا هربنا، متجهين نحو الوادي الأسود، ولم ندرك بأن تلك الجهة محاصرة أيضاً، كان والدي يمسك بيدي، وكانت والدتي وشقيقتي نازة تسبقاننا، وفي حافة القرية سقط والدي على وجهه، نظرت فوجدته وقد تدفق الدم من كتفه، تملكني الخوف فجلست أرضاً، قال لي إذهب ..قم وأذهب وألتحق بوالدتكَ، تملكني الخوف فهرعوا وقبضوا عليّ فيما بقي والدي هناك.. لا أعرف.. لقد أقتادوني من خلال الوادي وشاهدوا في الطريق العم خدر فأعادوه بدوره).

ـ (وماذا حل بالعم خدر؟).

أشار إلى الزاوية القصية من الغرفة (إنه ذلك الذي يرتدي دَميراً والذي يلف السكائر... لقد جمعونا عند طرف القرية... فظهرت ثماني إلى تسع عربات زيل من خلال القرية. كانت والدتي في إحداها، أردت أن ألتحق بها فمنعوني. كانت والدتي تبكي وتمد يديها نحوي، أصعدونا بدورنا إلى إحدى عربات الزيل...) إمتلأت عيناه بالدموع، فتدفقت بضع قطراتِ دموعٍ من عينيه وهي تسيلُ على خديه ببطء.

ـ (من سكنة أي قرية أنت؟).

ـ (إبراهيم غلام ... لقد أرسلوا مع عربة الزيل التي نقلونا بها أثنين من الجحوش ..كانوا يقولون بأنهم إقتادوا سكان القرى الواقعة في الطرف الآخر من روخانة أيضاً .. وكانوا يقولون بأنهم سيطلقون سراحكم). وكان بدوره يقول: سنقضي يوماً أو يومين وسيطلقون سراحنا، يرتدي كرميان سروالاً أزرق اللون وبلوزاً دون أكمام، ويرتدي تحت البلوز قميصاً قهوائياً، يمكن أن والدته قد خاطته له لعدم إنتظام ياخته وتقلصه، لا يزيد عمره عن 10 إلى 12 عشر عاماً. كانت شفتاه تمطان حين يتكلم، وكنتَ تعتقد أنه يبتسم ... لا تعرف ماذا تقول...

كيف لك وبماذا يمكنكَ أن تطمئنه، لقد أنقبض بلعومكَ، فإن لم تتحلَّ بالصبر فسوف تجهش بالبكاء، بدوره لا تزال أثر البكاء بادياً على سيمائه، تدفقت بضع دمعات أخرى من عينيه، أجترع مخاطه ونهض يقف على قدميه فوراً... فبدأ يحدقُ مرة أخرى من خلال كوة الكارتون. فسألته من أجل أن تبدأ معه الحديث:

ـ (ماذا ترى؟).

ـ (ظلام ...) رفع قدميه بضع مراتٍ، رافعاً رأسه إلى الأعلى .. (ها إنهم يسوقون مجموعة أخرى .. أقول من المكن أن يصادف ويأتوا بوالدي إلى هنا؟).

ـ (نعم ... سيأتون به ... لِمَ لا يأتون به نعم ...).

مرة أخرى قرّب رأسه من الكارتون.

ـ (هناك في إحدى قصور صفوف منازل الطرف الآخر ثمة أشخاص يجلسون أمام نافذة وهم ينظرون إلى الجهة هذه ..).

فتقدم قليلاً كأنه يريد أن يبوح بسرّ ما مقترباً من أذنكَ:

ـ (أقول ... هل أستطيع الهرب من النافذة؟ ... إن ذلك الرجل النائم يقول أن إبنه هرب أمس من نافذة الغرفة الملاصقة لنا وهو موجودٌ الآن في منزل أحد أقاربهم ..).

ـ (أنت أكبرُ وأن أصفاد هذه النافذة ليست واسعة بما فيه الكفاية لتخرج من خلالها إلى الطرف الآخر...) فجلس في مكانه خائباً، وتمطت شفتيه قليلاً وظهرت علامات حزنٍ غير

منظور على محياهُ رغم صغر سنه، بدأ يرنو إلى حضنه. أنتابك القلق من أن يكون قد خاصمك.

ـ (عزيزي كرميان ألا تخبرني مَنْ مِن هؤلاء هو العم خدر؟).

ـ (الم أخبركَ بأنه ذلك الذي يرتدي دَميراً .. الذي نزع دَميره .. ها هو وقد تمدد... هل عرفته؟).

لم يبق لديه شيءٌ ليقوله، أمالَ رقبته قليلاً نحو كتفه الأيسر.

ـ (وأنت كيف ...) لم يكمل سؤاله كأنه ندم من توجيهه، لكنني فهمتُ.

ـ (تريد أن تعرف كيف أتوا بيّ إلى هنا؟ هلاّ غلبكَ النعاس؟).

***

عمّ أحدثكَ؟ عزيزي كرميان من أين أبدأ؟ هلاّ غلبكَ النعاس؟ ... إن والدكَ أطلق عليكَ إسم كرميان من فرط محبته لهذه المنطقة... فالحق يجانبه. عزيزي كرميان هل هناك منطقة تطيب فيها الإقامة أكثر من كرميان هذه... ولم لا تتحدث عن ثقة وبساطة أهلها؟... لقد خرجت قبل ثماني سنوات من هذه المدينة، كنتُ أستطيع التوجه إلى تلك المشاتي لكنني أحببتُ قيظ وحرارة هذه المنطقة عوضاً عن ظلال وشلالات وينابيع تلك المشاتي ... إن هضاب وسهول كرميان المترامية الأطراف لدي أكثر جمالاً من الجبال وسفوحها،ألم تمارس في الليالي المقمرة في أطراف القرية لعبة الختيلة والتباري بقدم واحدة؟ ألا تعرف بأنه ليس في المشاتي ولا في أي موقع آخر في هذه الدنيا لن يكون القمرأكثر إشراقاً وجمالاً مما عليه في كرميان!! عزيزي كرميان في طرق كرميان حين كنتُ أتوجه من قرية إلى أخرى كنتُ أنزع حذائي في الطريق، وكان باطنا قدمي يقشعران سعادة جراء السير حافياً فوق تلك الأتربة الدقيقة المماثلة للكحل.. أتربة دقيقة جداً كأنها دقيق أحمر.. هل يستطيع المرء تسلق جبلٍ وهو حافٍ؟ ...كرميان حين نجتاز هذه المحنة سأزور قريتكم، هل يعجبك؟ وسأطلعكَ على كل هذه الأمور...عمّ أتحدث إليك؟ ولِمَ لا تتحدث عن ربيعها؟ ورغم أن ربيعها قصير الأمد، لكن ربيعها شيء نادر وعجيب.. في أي مكان يكون الربيع قصير الأمد كربيعها؟ أليس من الغرابة؟! فتفرش لك تلك السهول من تلقاء نفسها سجادة خضراء فجأة، ولن يمر طويل وقتٍ حتى يصفر لونه، لذا يقولون إن سكانها لم يشبعوا نهمهم من

لذائذ الدنيا.. وأنهم سيموتون من أجل الحصول عليها، ورغم ذلك لا يمكنهم العيش دون كرميان ولن يبتعدوا عنها حتى يلفظون أنفاسهم الأخيرة...

***

عزيزي كرميان، ومنذ أصبح كرميان كرمياناً، فإن سكانها ينتظرون قدوم ربيع طويل الأمد، ألَمْ تذهب في الربيع للبحث عن الفطر وكمأ التلال والسفوح وكَعوب الأراضي البور قرب القرية؟ ... ومن ثم هل هناك في هذه الدنيا مكان يحل فيه فصل الربيع مرتين سنوياً؟ ألَمْ تذهب في فصل الخريف إلى ضفاف (روخانة) و(ئاوه سبي)...لكن عزيزي كرميان فرغم هذا الجمال النادر فإنه لا مثيل لهموم ونكد وبؤس وشقاء قاطنيها، فأول ضربة توجه عند حدوث النوائب والاجتياح والهجمات تطال هؤلاء، وتحرق وتدمر مساكنهم وصرائفهم وينقل ويبعد شبانهم وشيابهم ونسائهم وأطفالهم إلى الصحارى والمدن البعيدة، يقال أنه ومنذ أمد بعيد جرى إبعاد سكنة كرميان إلى ليبيا وشمال أفريقيا، والأقدم من ذلك فقد مرّ ما يسمي بسنحاريب مع جيش جرار بمنطقة كرميان حتى وصل إلى منطقة قرةداغ، ولم يقف سكان كرميان متفرجين ومكتوفي الأيدي حيث شنوا في إحدى السنوات هجوماً على ذلك الجيش الجرار ولقنوه درساً قاطعين عليه الطريق، لكن الكرميانيين دُحروا في النهاية غير أنهم أرتكبوا بحقهم مجازر قاسية... فوصلوا إلى كفري قبل الجميع وقاوموا جيش الإنكليز برفقة كريم خان الدلو وكان الشيخ الخالد يثق بهم، من ذا الذي لا يتذكر معركة (آوباريك)، ولن يستطيع أحدٌ إنكار رجولتهم وبسالتهم وشجاعتهم، غير أنهم ينعمون بالسعادة والسؤدد بعدَ الجميع.. إن ما أتذكره أنا إنه ومنذ ثلاثين عاماً ولا زالت منازلهم وبيوتهم تحرق و يجري نهبهم وسلبهم، غير أنهم لا يهتمون بمال الدنيا، ويقولون إن الباري خلق المرء وإنه سيرزقه أيضاً.. وكانوا يعوضون ما يتم نهبه وسلبه منهم، أما فيما يتعلق بأعادة بناء المنازل والصرائف، فهناك الكثير من القصب والنباتات الشوكية والقصب وحشائش كرميان، فكانوا يسقفون بها منازلهم وبيوتهم، ليقعدوا فيها ويستريحوا وكأن شيئاً لم يحدث أبداً... ورغم ذلك فلن يوليهم أي طرف أي إهتمام، يقال إن قتلى معركة وقعت بين طرفين متخاصمين كان جلهم من الكرميانيين، آهٍ من شدة وفائهم وبساطتهم.

وقد تعرضوا في هذه السنة حول ضفتي (روخانة) ومحاذاة (سيروان) لإعتقالات عشوائية . وكأنهم بجميع أطرافهم يحبذون أن تكون كرميان خالية مقفرة، ها إن تلك الهضاب والسهول مقفرة وخالية، عطشى يصرخ ترابها ومدائرها وأطيانها.. كيف يجوز هذا يا عزيزي كرميان؟ لا يجوز هذا العمل...

ـ (كرميان لقد أزعجتكَ معي، ألا تريد أن تخلد للنوم؟)....

ـ (لقد إستعصى عليّ النوم.. كان معلمنا في القرية يحدثنا هكذا أيضاً...).

مد يده من تحت قميصه ليحك جسمه وأستطرد قائلاً ...(لكن مدرستنا مقفلة منذ عامين ... لم تخبرني كيف أتوا بكَ إلى هنا؟).

أتودُّ أن تعرف:

ـ (قبل بضعة أيام، ولم تكن لهذه الأنباء من وجود، لكن الهمس واللمز كان قد بدأ... بأن أمراً ما سيحدث... لقد قدمت والدتي من المدينة إلى قرية (زنانة) لزيارتي، فقضينا ليلتين معاً في منزل الحاج رشيد كويخا كرم. ولم ننم في الليلة الأولى حتى الصباح.. فسألتها عن أخبار الأصدقاء والمعارف، وسألتها عن أحوال سيروان إبن شقيقي، إنه في مثل سنكَ ولا يزال يُتأتيء حتى الآن؟ فهل لا يزال يخاف من الفئران أم لا؟ وعند حلول الفجر كنتُ أنام في حضن والدتي كالطفل. وبعد يومين عادت والدتي إلى المدينة وتعهدت لي بالقدوم في العيد برفقة سيروان، فأنتشر نبأٌ بأن المنطقة ستتعرض لهجوم واسع. وكانت الأنباء السابقة لحلبجة قد أدخلت الخوف والرعب والشك في نفوس الناس وأثبطت من عزيمتهم... كان منزل إحدى خالاتي في قرية (خان) فقررت أن أقوم بزيارتهم، وكانت والدتي قد أخذت مني عهداً أن أقوم بزيارتهم للإستفسار عن أحوالهم.. إن طريق قرية (خان) وعرة ومبعث تعب وإرهاق للمسافرين، وحتى إن كانت كرميان مأهولة فيحل فيها الصيف منذ الشهر الرابع.. إن الحرارة الشديدة أحرقت تلك السهول، وأصفرّت حقول القمح والشعير، والحشائش، ففي الربيع تغطي الورود البرية المختلفة الألوان تلك السهول فتذبل في هذا الفصل وتموت .. وترتفع النباتات الشوكية والعاقول حتى الرّكَب لتبقى إلى وقتٍ متأخرٍ من الخريف، وتغدو مخابيء للأرانب والثعالب وأعشاشاً للقطا والحباري وأبو الخطاف والزقزاق ومختلف الطيور.. فخرجتُ من القرية مبكراً بحيث كنتُ في ضواحيها حين أشرقت

الشمس، كانت حقول الحنطة والشعير تغطي جانبـي الطريق، وقد نبتت بحيث تصل سيقانها حتى الرّكب، كانت أشعة شمس ذلك الصباح تتلألأ حين تضرب السيقان المصفرّة، فيما كانت هبة نسيم دافيء في ذلك الوقت من الصباح الباكر تهب لتضرب المحاصيل وتجعلها تتمايل ميلاناً جميلاً وتصدر هسيساً يطرب الأسماع. في الطريق كنتُ لا أزال أفكر في الهجوم. سأقول لهم أن يرحلوا وينفذوا بجلودهم، وكنتُ أتكلم بيني وبين نفسي هكذا... سأقول لهم ستنالون الأجر والثواب إن أخبرتم القرى القريبة منكم .. إن لم يكونوا مطلعين على تلك الأنباء..لقد تعرضت القرى مراراً وقبل الآن إلى حملات وهجوم.

كانوا يرحلون لأيام وينتقلون إلى تلك الهضاب والمرتفعات ومن ثم يعودون إلى القرية حين تنسحب القوات المهاجمة. كنتُ أقولُ مع نفسي ... ستكون هذه المرة كسابقاتها .. ستكون عاصفة ستهب وتنتهي بسرعة.. فلم أتصور أن تصل الأمور إلى هذا الحد...

عزيزي كرميان، كنتُ في تأملاتي هذه وفجأة طارت قبرة عند قدمي فجفلتُ، ولكن أية جفلة.. كانت الشمس قد أرتفعت شمرة سهمٍ حين وصلت إلى قرية (خان)، فجلست على ضفة النهر، وغسلتُ وجهي بحفنة أو حفنتين من الماء.. وشربتُ بعض الماء وتذكرتُ العام الأسبق عندما كنتُ هناك أشرب الماء... ذات مساء بارد كنتُ ذاهباً هكذا لزيارة بيت عمتي ووصلت إلى التلة المجاورة لي وفي ذلك الوقت كان النهر يفيض بالمياه وعبوره كان صعباً بعض الشيء، وكنتُ أرنو من فوق التلة إلى القرية، وكانت الدبابات تحاصر القرية في تلك اللحظة، وكان الجنود منتشرين في القرية ولم يمض وقت طويل حتى بدأوا ينسحبون منها مشعلين النار في عدد من منازلها، فبقيت فوق التلة لحين إختفاء القوة المهاجمة عن الأنظار، عندها عبرتُ النهر، وجلسنا في القرية إلى وقت متأخر من الليل عندها أطلعتهم على خبر الهجوم المتوقع، إن هؤلاء السكان أَلِفوا الكوارث والمآسي والمحن، إنهم ينتظرون المحن أكثر مما ينتظرون السعادة والسؤدد... قالوا ليست هذه المرة الأولى، لقد أعتدنا على مثل هذه الأمور... سنتوجه إلى تلك الهضاب والوهاد ونبقى بضعة أيام كما كنا نفعل سابقاً ومن ثم سنعود، طز في الثروة ومال الدنيا، المهم أن نبقى أحياء.. قالوا هذا ...عزيزي كرميان، والآن تعرض هؤلاء بدورهم لهذه المصيبة... لقد خلد أفراد عائلة عمتي للنوم لكنني لم أخلد إلى النوم، وعند الفجر استعدتُ وأيقظت عمتي وودعتها .. وعبرت

النهر وأردت أن أُقَصِّرَ الطريق لأصل إلى قرية (قلا) بسرعة وكانت هناك حاجات خفيفة وبعض الكتب لأحملها معي وأرحل، إنعطفتُ عن الطريق وبدأت السير في حقول الحنطة والشعير، وكانت سيقانها تتكسر تحت قدمي وتصدرأصواتاً، وفي بعض الأماكن كانت لا زالت بعضها خضراء، ورأيت أزهاراً برية جميلة كانت لا تزال تحتفظ بألوانها تحت أكوام محاصيل الحبوب.. وبدأت حرارة الشمس تزداد رويداً رويداً... ولم أكن قد خلدتُ إلى النوم ليلاً، كانت شرايين جسدي تنبض، وكنتُ متعباً أريد الوصول إلى قرية (قلا) في وقت أبكر كي أبلغهم بالخبر وأحمل حاجاتي وأرحل نحو الشمال .. ومن أجل أن أنسى تعبي كنتُ أصيخ السمع لصوت تكسر سيقان الحبوب تحت قدمي، كانت تصدر صوتاً رخيماً.. كنتُ أحاول نسيان مخاطر الحملة لكنني حين تذكرت كارثة هلبجة كان جسدي يتصبب عرقاً، وكنتُ أتخيل لو أن الكارثة تكررت فماذا سيحدث وقتها؟ .. يبدو أن هذه الغلال ستبقى على حالها هذا العام أيضاً، أبصرتُ رجلاً وإمرأة يسيران على الطريق الآخر، يرافقهما طفل ذو ثمانٍ أو تسع سنوات كان يركض على جانبي الطريق، كان كل منهما يحمل صرةً، ناديت عليهما فتوقفا، حين أقتربتُ منهما كنتُ أرى الخوف والشك بادياً على سيمائهما وحتى الطفل حين أبصرني هرع راكضاً ليلتحق بأمه، فقمتُ أُطمئنهم.

ـ (كنتُ أود أن أطلع على أخبار الجنوب...).

فتبددت شكوكهم.

ـ (ما هي أخبار أومرمل؟).

ـ (.....).

ـ (إلى أين تنوي الذهاب؟).

ـ (بدورنا لا نعرف).

نكس رأسه ولاذ بالصمت، فصمتنا كلانا لبضع لحظات ولم ننبس ببنت شفة.. كان سيماء المرأة قد أسودّ كغطاء رأسها الذي كانت ترتديه، فيما كان جيب الرجل ممتلئاً فمد يده وأخرج قرصة خبزٍ مطوية ومدها إليّ، فلم أتسلمها منه، (أنتم على سفرٍ أمّا أنا فإنني في طريقي إلى حيث العمران..). قلت هذا وودعتهم... فتوجهوا بدورهم نحو الشمال أما أنا فقد سرتُ في طريقي نحو الوادي المجاور. لقد أشتهر ذلك الوادي بوادي مُهلك المسافرين،

تسيل فيه سيول الأمطار في الشتاء، ولن يسمح للمرء أن يعبره أيام هطول الأمطار، ويجف فور أن تكف الأمطار عن الهطول، هناك مساحات نبتت فيها حشائش خضراء جميلة، ومنذ بداية الصيف لن يستطيع المرء تحمل العيش هناك جراء إنتشار البراغيث، وهي تئز أزيزاً فوق الأحراش والقصب كقطع سحب سوداء، وإن صادف ومرّ المرء من هناك عليه أن يحمي وجهه بكفيه مراراً. أرتأيت أنه من الأفضل لي أن أترك الوادي، فدلفتُ إلى حقول الحبوب تارة أخرى، ووصلت إلى قطعة أرض بور أرتفعت فيها النباتات الشوكية إلى الركبة، وكانت حرارة الشمس لاتزال تشتد في الأعالي، لقد نسيتُ الجوع، لكنني كنتُ عَطِشاً، وقد هبت نسمة هواء حارة نوعاً ما عوضاً عن نسائم الصباح، كانت تجفف العرق الذي كان يبلل محياي ورقبتي وكتفيّ، وكانت هناك قبالتي عاصفة ترابية عملاقة تدور وهي ترتفع في عنان السماء تتجه نحوي، وقد أحدثت خشخشة وخريراً غريباً في حقل الحبوب الذي يجاورني، لقد ظهرت شجرة توت قرية (قلا) وكانت هناك تلتان تخفيان منازل القرية عن المارّة وكنتَ لا ترى بيوت القرية حتى تجتازهما.. أسرعتُ خطاي واضعاً إحدى يدي على ركبتي لأتسلق التلة، وأسترحتُ برهة عند قمة التلة ووقفت بإستقامة قدمي، إلتفتُّ إلى جانبي وقلتُ في نفسي (آهٍ يان كرميان التعسة...)، عزيزي كرميان كنتُ أقول لأصدقائي دائماً (إن كرميان هذه لهي سرٌّ بحد ذاتها.. من لم يفهمها لن يفهم سرّها! إن لم يكن ذا دراية بهضابها وسهولها المترامية وقاطنيها الظرفاء ليس في إستطاعته أن يكن لها حبه ولن يستطيع العيش فيها...). ففي العام الماضي بقي شاب متحمس من تلك المشاتي لمدة شهرين فأنتابه الضجر ولم يستطع البقاء فقفل عائداً، غير إن من يمتلك قدراً من الصبر والتحمل ستتضح له أسرار المنطقة رويداً رويداً.. أتذكر مرة عرجنا مع أحد أصدقائي على قرى منطقة زنكنة، وهضبة زنكنة، لتكن عامرة، مشهورة بوعورتها، حين أدركه التعب أردف قائلاً (ألا تخبرني كيف يعيش هؤلاء الناس في هذه البراري القاحلة الوعرة ويتدبرون قوتهم؟!). فقهقهتُ ضاحكاً، أدركتُ أن الهضبة قد أنهكته ويريد أن ينفس عن غضبه بهذه الصورة ... (أخي العزيز ولو كنتَ مترعرعاً عند سفوح الجبال الوعرة لكن هذه هي سهول وبراري وهضاب كرميان وإنها ليست لعبة من لعب الأطفال). نعم عزيزي كرميان لقد قلت له : أسمع ..هنا كرميان ولن تشبه أي منطقة أخرى في العالم،

فأنظر كيف نبتت محاصيل الحبوب في هذه المنطقة الجرداء وأنظر إلى هذا الخير العميم..ألم أخبركَ أن هناكَ سرٌّ ما، وإلاّ كان عليكَ ألاّ تجد أحداً هنا في هذه السهول الجرداء وفي هذه الرمال المنثورة، غير إنك تجدها عامرة بمئات القرى.. ولم يدفع جفافها إلى ضجر وسأم قاطنيها، بل أزدادوا تعلقاً بها..ألَمْ ترَ صبرهم وهدوئهم وقلة كلامهم وصمتهم! يقال إن ثرى وأرض هذه المنطقة تجهش بالبكاء ليلاً من فرط هدوء وصمت أهلها.. نعم تجهش بالبكاء، حين تبكي تروي بدموعها تلك الغلال، لهذا ومهما حل القحط والجفاف بها فإن المنطقة أنتجت قدراً لا بأس به من الغلال، وإن لم تكن كذلك فقد جعلتها تبدو خضراء... عدا مرّة واحدة كفتْ فيها أرض المنطقة عاماً أو عامين عن البكاء وذرف الدموع لترتوي محاصليهم الزراعية.. ويقال إن قاطنيها كانوا هم السبب في ذلك.. يقال إن قاطني المنطقة كباراً وصغاراً أعتادوا على الصيد، فلم يبقَ شيءٌ من قطعان الغزلان والأرانب.. ولم يبقَ طيرٌ ليطير في السماء، فقد أستولت عليهم فكرة الصيد لدرجة أنهم أبادوا القنافذ والأوازغ أيضاً، وتم إبادة كافة الحيوانات في المنطقة... فيما كان ثرى وأرض المنطقة تهزأ بهذا التصرف الطفولي ولم تذرف الدموع طوال هذين العامين، لذا فقد حل بالمنطقة قحط وجدب لم تنبت فيه حبة شعير، فقد حلت عليهم لعنة تلك الحيوانات والطيور فغادر كل منهم المنطقة إلى وجهة ما، وكانت الـ(خالص) تعج بالكرميانيين، وعقب إنقضاء العامين عادوا إلى كرميان بثروة لا بئس بها وعربية ركيكة، ومنذئذ لم يعودوا يعشقون الصيد، وحتى الآن حين يتحدثون عن هذين العامين فإنهم يذكرونهما بعام (الخالص)، وإن وجد صياد في قرية ما فإنه سيعاني طوال العام من الفقر المدقع، إنها إرادة الباري وسيعاني ذلك الصياد العوز والفقر والفاقة! توقفتُ هنيهة على التلة، بيوت طينية تتشابك مع بعضها البعض، كنتَ تظن أنها خاوية ولا يسكنها حيٌّ ولم تكن ساكنة هكذا أبداً! ... في الأيام الخوالي حين كنتُ أصل إلى قرية (قلا) كانت تتناهى إلى مسمعي من على هذه التلة أصوات شتى ... حيث تختلط نباح الكلاب، ومأمأة الأغنام والمعزى ونهيق الحمير وصهيل الأحصنة ببعضها. عزيزي كرميان لا أعرف متى ظهرت لدي هذه السجية: حين كنتُ أتوجه إلى أي قرية كنتُ أود كثيراً أن أجلس في أطراف القرية وأصيخ السمع إلى تلك الأصوات والضوضاء.. وكم من مرّة أصختُ السمع إلى إغنية (يار غزال) التي كان يغنيها (لفتة)،

فأنستني مشقة الطريق كهبة نسيم دافيء، وفغرتُ فاهي جراء لحنها المحترق والمليء غربة ويتسع خيالي وسع سهول وبراري كرميان الشاسعة... غير أن القرية كانت ساكنة هادئة في تلك اللحظات فلم أسمع أغنية (يار غزال) لـ (لفتة) ولا تلك الأصوات والضوضاء.. عزيزي كرميان .. حتى إن شجرة التوت كانت ساكنة..فترجلتُ من التلة، كان هناكَ طريق يؤدي كالسهم إلى قلب القرية فأوصلني إلى ظل الشجرة.. وكان هناك عدة رجال يجلسون تحتها، لكنهم كانوا لا يدرون ماذا يفعلون. وكانوا يتباحثون منذ الأمس فيما بينهم، وقد قرروا الليلة الماضية أن يحملوا ما خف وزنه ويرحلوا، والإختباء في تلك الوهاد والمرتفعات على الأقل، غير أن مجموعة من مسلحي أحد الأطراف في المنطقة كانوا قد قطعوا عليهم ذلك الطريق، كانوا يقتربون من بعضهم البعض ويتجادلون دون أن يصلوا إلى أي قرار، لماذا يمنعوننا من النجاة بجلدنا؟ ... كانوا يدعون أن ليس من قوة تقف في وجههم هذه المرة.. كان بعضهم يقول هذا ويعودون إلى بيوتهم فلن يقر لهم قرار ويعودون إلى ظل شجرة التوت ... ويبدأ الحديث حول ما يجب أن يفعلوه .. فلم يكونوا ليفعلوا شيئاً... ولم يكونوا ليستطيعوا فعل شيء يذكر ... وماذا يفعلون؟

كانوا يسألون بعضهم بعضاً ولم يكن بمقدور أي منهم أن يرد على سؤال الآخر، وكانوا يقولون شيئاً من تلقاء أنفسهم ليلهموا أنفسهم صبراً، وكانوا يحكون عن أمور غريبة لطمئنة بعضهم بعضاً.. ويخلقون لأنفسهم عالماً من الهدوء والمرح ولم يكن ليمضي وقت طويل حتى يشككوا في ذلك أيضاً.. باتوا حائرين .. ليحير الله من تسبب في حيرة هؤلاء الكرميانيين ... وكان المرسل الذي يرسل لتقصي الأخبار لن يعود، إنه من الجور والظلم أن يحاصر الخوف إمرءاً لايجد من يحميه أو يلتجأ إليه. هؤلاء فقط هم من يدركون ما مدى الظلم والتعسف الذي يشعرون به وهم يمرون بمثل هذه الظروف، إن هؤلاء الذين يفقدون الأمل هم من يعرفون ماذا يعني الخيبة. إن الخوف والقلق والشك والخيبة أفقد هؤلاء الناس معنوياتهم ... ماذا يفعلون؟ لا يعرفون إلى أين يذهبون؟ وقد أُغلقتْ كافة الطرق في وجوههم.. نرحل .. لانرحل؟ حسناً سنرحل .. إلى أين؟ لايعرفون، ... عزيزي كرميان، كانوا يتصرفون فيما بينهم هكذا ويتحدثون هكذا، لو كنا ندرك ما سيحلّ بنا، لكُنّا قد وجدنا حلاً بأنفسنا..

كان هناك تحت شجرة التوت (زقٌّ) ماءٍ فتناولته ورويت ضمأي، فرح الجمع برؤيتي، كأني أمتلك حلاً للحيرة التي يمرون بها، وكنتُ قد قررت بدوري أن اخبرهم بالرحيل.. الرحيل بأسرع ما يمكن، وعدم الإصغاء إلى أي كان، والرحيل. فقد كنتُ قد قررت بيني وبين نفسي أن أخبرهم هكذا.. منذ ثلاثين .. أو خمسين عاماً .. وهم يخدعون هؤلاء الناس ويدفعونهم نحو الهلاك.. نعم كنتُ أنتظر أن أخبرهم بهذا القرار...

عزيزي كرميان، ألا تشعر بالنعاس؟ ..فلم أكد أضع (زقّ) الماء أرضاً، حتى تجمهروا حولي (نرحبُ بعودتكَ .. ألا تخبرنا أين كنتَ؟ ...) كانوا يقولون هكذا بصوت واحد، ليت هؤلاء أن يعتادوا أو يحقدوا على أحد. كانت النساء جالسات أمام عتبات منازلهن.. فظهر رجل مسن مرتجفاً من أحد الأزقة وهو يجرجر قدميه نحو شجرة التوت...

(إخوتي ...) بدأ الجميع يصيخون السمع. (أرحلوا ...).

فلم يسعفني التعبير أكثر من هذا، لم أجرؤ أن أتفرس في وجوههم.. كان يبدو عليهم أن لديهم عتاب وشكاوى شتى.. لكنهم لم يكونوا ليبوحوا بها .. وآلاف الأسئلة تجمدتْ على شفاهم دون أن يبوحوا بها.. هذا هو ديدن هؤلاء الكرميانيون، لا يلومون أحداً ولا يشتكون من أحد، وإن لم يرضوا عن أمرٍ ما، سيتراكم في نفوسهم دون أن يبوحوا به.. وفجأة وقعت الواقعة.. إنها أصوات إطلاق نار .. إطلاقة .. إطلاقتان.. دون أن تصبح ثلاث ..إنها إطلاقات من بعيد.. فتفرق الحشد.. لم يعد أحدٌ يفكر في المال والممتلكات وكانت النساء يتراكضن صارخات ويدخلن البيوت ليمسكن بأيدي أطفالهن ويبدأن بالرحيل.. أهرعوا .. أين .. حسين ... مجيد يا عبيط .. قل لأمي حالاً ... ألاّ تتركني.. سقطت صرّة من إحدى النساء، فلم تسنح الفرصة لها أن تلتقطها ثانية، فيما جلس الرجل العجوز في مكانه كالطفل مداً ساقيه.. فهرعتُ .. وكنتُ أرنو بنظري إلى الوادي خلف القرية، كان هناك في رأس الزقاق طفل ساقطٌ على وجهه وهو يبكي، لم يكن هناكَ أحد، يمكن إنه كان منشغلاً باللعب حين بدأت الأحداث ولم تستطع أمه البحث عنه، هناك وفي الطرف الآخر من الزقاق خرج عدد من الشبان مسرعين، فسقط الطفل تحت أقدامهم، وكان قد كفّ عن البكاء حين أقتربتُ منه .. ها . إنه .. شوان إبن حمة غريب ... نجل الرجل الذي يتمدد جنبي، عزيزي كرميان بإلله عليك لا تخبره ...! هرعتُ إلى الوادي ولكن كان

صوت الطفل لا يزال يرن في أذنيّ.. فأختبئتُ في إحدى الأخاديد، كانت تتناهي إلى مسمعي أصوات البكاء والصراخ والإستنجاد، توقفت عن الحركة، لكن مشهد الرجل العجوز لم يكن ليبارح ناظري ولا بكاء ذلك الطفل ينقطع عن مسمعي، سكنت الأصوات لبعض الوقت، وفجأة تناهت إلى مسمعي كلمات (قف .. لا تتحرك) من مسافة قريبة، ومن ثم سمعتُ أصوات وقع أقدام (وهذا آخر ممن أختبأ هنا .. أخرج) فخرجتُ لأسير أمامهم. وفي الطرف الآخر من التلة رأيت بضعة مسلحين يقودون بضع نساء وعدد من الأطفال، كان هناك عدد من عربات الزيل العسكرية تقف خارج القرية، كانوا يجمعون الناس مراراً ويزجونهم في عربات الزيل.. وأقبلتْ عربة بيكاب كانوا قد حملوها بالمواد الغذائية والحاجيات العائدة لسكان القرية، أصعدوني إلى البيكاب وأصدروا الأوامر لأثنين من الجحوش بحراستي.. وقد حدث أن وصلتُ مساءً إلى هنا. عزيزي كرميان لقد رأيت بأم عيني وهم يشعلون النار في المنازل، وكان عددٌ آخرَ منهم يقودون مواشي واغنام سكان القرية نحو الجنوب.. وحين مرّرنا بقريتي (سالَيي) و(شورّاو) غدتا تلتين كبيرتين من أتربة وطابوق، في وقتٍ كانت خيوط دخان قاتم ترتفع من بين الأنقاض في عنان السماء رويداً رويداً...

****

كان الوقتُ متأخراً من الليل، هذه الليلة هي الليلة الثانية بين جدران هذه الغرف الضيقة، وكانت عربات الزيل لا تزال تنقل طوال النهار النساء والشيوخ والأطفال والشبان دون توقف... والصمتُ يخيم على الخارج.. وخلد إلى النومِ من كانوا في الغرف أو وضعوا رؤوسهم على ركبهم صامتين وهم يتحدثون مع همومهم... هناك ثلاثة فقط في الغرفة يبدو أنهم ما زالوا متيقظين ... كرميان الذي لن يغادر عتبة النافذة، العجوز الآخر الذي يعرفه كرميان، وصابر الحاج جمعة. الذي يشعر بالأرق ولن يجد أحداً يدردش معه، مما أضطره أن يتحدث مع نفسه بصوت مهموسٍ ..(لا أعتقد بوقوع مثل هذه الأفعال في أي بقعة من بقاع العالم..إن قوانين السماء والقوانين الوضعية لن تسمح بارتكاب أفعال رعناء كهذه.. أن تنفذ حملة إعتقال عشوائي لسكان منطقة شاسعة دفعة واحدة!! سيغدو البلد

بلداً بلا قرى؟!....). شعر أن كرميان يراقبه، قام وذهب ليجلس معه كما فعل الليلة السابقة، وما كاد أن يجلس حتى قرّب شفتيه من أذنه:

ـ (أقول ... هل أستطيع الهروب من النافذة؟).

لقد بادره بالسؤال عينه في الليلة السابقة، غير أنه لم يعره أذناً صاغية، لكن توجهه هذه الليلة يختلف، يبدو وكأنه يتوسل إليه، كان يرنو بناظريه البراقتين إلى سيماء صابر منتظراً كلمةً طيبةً، كان توجهه ومحياه يختلفان عن الليلة السابقة، وضع صابر كفيه الصغيرين بين كفيه، وهو ينظر إليه بعين العطف، (كيف للمرء أن يكن الحقد إلى هذه الدرجة على بني جلدته؟! .. إن ما يفعله الإنسان بحق الإنسان لن تقدم عليه حتى الوحوش بحق بعضها بعضاً).

أردف صابر في سرّه هذا.. وأراد أن يحادثه كي لا يتذكر سؤاله.

ـ (لَمْ تخبرني إبن من أنتَ؟).

ـ (حمه سعيد ...).

ـ (أي حمه سعيد؟).

ـ (حمه سعيد ساله مجنون جالودوانَيى).

ـ (ساله مجنون ... ساله مجنون ... لقد تناهى إلى مسمعي هذا الإسم !).

بدأ صابر يفكر في سرّه.. وهو يعصر ذاكرته ...(في قرية ـ قلا ـ كنّا نتحملقُ حول لفتة كي يغني لنا أغنية (يار غزال) وكان يحدثنا عن مطربي ومنشدي المنطقة .. ويقول:

(سَلِمْتُم أعزائي، إن صوتي ليس بذلك الصوت الطروب والشجي، هناك في كرميان العديد من المطربين والمغنين ممن لا أغدو صانعاً لديهم، لكن مع الأسف سيموتون واحداً إثر آخر ويأخذون معهم هذه الثروة حين يوارون الثرى ولن يتذكرهم أحد مثلما نسوا معظمهم الآن ...). كان يقول: (ليس الآن، بل منذ القِدَمْ كانت هذه المنطقة موطناً لمقامات (الله ويسي) و(قَتار) و(خاوكَرْ) و(خورشيدي) و(يار غَزال) و (سَوزه سَوزه)...). وكنّا نودُّ ألاّ يحدثنا عن الأيام الخوالي بل يغني لنا أغنية (يار غزال)، غير أنه كان يستطرد: (كان والدي يحكي وقتها: كان هناكَ رجلٌ يسمى ساله مجنون يقطن قرية جالودوانه، لم يكن هناك في أرجاء كرميان صوت أطرب من صوته.. وكان حين يغني مقام قَتار وخاوكَر كانت جل نساء

وفتيات القرية يرفعن أياديهن عن قربهن وشجواتهن، ويترك الفلاحون والمزارعون محاريثهم ومناجلهم ليصغوا إلى ذلك الصوت الطروب ...). كان لفتة يستطرد و يقول: كنتُ قد سمعتُ من والدي بأنه كان يغني مقام ألله ويسي في حضور الشيخ الخالد، ويقولون أن الشيخ الخالد حين كان يمرّ بكرميان كان يرسل في طلبه كي يغني له، وقد ورث نجله حمه سعيد ذلك الصوت الطروب من أبيه، غير أن شيوخ الطريقة الذين كانوا يرتادون المنطقة ويعلمون الناس الطريقة دعوا حمه سعيد وطلبوا منه أن يتوب ومنعوا عنه الغناء، بدعوة أن الغناء حرام ولا يجوز للدراويش أن يمتهنوه.. في وقت كانوا فيه أنفسهم كباراً وصغاراً يحبون سماع الأغاني، وهكذا جعلوا ذلك الكنز يرزح تحت حمل من الشعر الطويل، لكنه كان ينشد ترتيلة (مولاى صلِّ وسلّم..) عند عقد الذكر والتهاليل، وكان معظم الدراويش قد أنتابهم حالة من الوجد جراء ذلك الصوت الشجي..).. إذن، يعني إن كرميان هذا هو إبن المطرب حمه سعيد ساله مجنون ... كان صابر يردد هذا في سرّه...

قال صابر بوجه بشوش:

ـ (نعم، نعم، نعم عزيزي كرميان، حمه سعيد ساله مجنون جالودوانَيى.. إن شاء الله سيكون والدكَ بألف خير .. وماذا عن شقيقاتكَ وأشقائكَ ...).

ـ (نسرين أكبر مني سناً.. وشمه وسيامند أصغر مني سناً، ولدي شقيقين يكبرانني سناً... ليسا من أمي ..).

حين تلفظ بأسماء أشقائه وشقيقاته غمرت الدموع عينيه وأنحبس صوته... بدأ صابر يلوم نفسه لتوجيهه هذا السؤال إليه ... فلم يجرؤ أن يستمر معه في الحديث لئلا يجهش بالبكاء.. وعقب فترة صمتٍ دنى رأسه منه:

ـ (ألا أستطيعُ الهرب؟).

ـ (عزيزي كرميان إن هذه السفود غليظة...).

نكس رأسه وهو محبطٌ. تطابقتْ شفتاه، فأمسك صابر يديه بحنان، لم يكن ليعرف كيف يسليه وينسيه أحزانه. لقد بدأ أثنان أو ثلاثة آخرون يستيقظون من رقادهم، عدا كرميان وصابر والعجوز، إنهم يجلسون متربعين. يبدو أن ليس في وسع كرميان الإبتعاد عن النافذة، نهض واقفاً وبدأ ينظر من كوة الكارتون، كان صابر يسعده تصرفه هذا لأنه كان يدرك أن

هذا سيسليه، من جهة أخرى كان يعطف عليه كلما بدأ ينظر من كوة النافذة وينقبض قلبه.

ـ(ليتسلى).

أستطرد هذا بينه وبين نفسه ثم نهض عائداً إلى موضعه...

كان حمه غريب نائماً، فجلس بالقرب منه وأسند ظهره للجدار ماداً يديه على ركبتيه وتطلع إلى أرجاء الغرفة... كان هؤلاء الأشخاص مستيقظين في الغرفة فقط ... وكان كرميان لم يبتعد بعدُ عن النافذة. كان الرجل العجوز قد رتب دميره كأنها وسادة مسنداً كوعه عليها. أراد صابر أن يذهب ليجلس معه لكنه تحامل على نفسه.. وجعل يفكر ملياً بالكارثة.. (ليست قرية أو قريتان أو ثلاث قرى.. إنهم جمعوا جل سكان كرميان، إنهم يضمرون نية مبيتة.. إنها إبادة جماعية .. إنها .. حسناً وإلى أين إقتادوا سكان قرى حوض ئاوه سبـي ؟....

يمكن أن يكونوا في الغرف الأخرى... إن هؤلاء هم سكنة حوض روخانه... وماذا عن القرى القريبة من نهر سيروان وجافايتي وهضاب زنكنة؟ من الممكن أنهم أقتادوهم إلى مدينة أخرى...).

ها إن كرميان يتحدث مع أحد الأشخاص ... كان ذلك الشخص خلف النافذة غير ظاهر للعيان ... يقف كرميان على رؤوس أصابعه وهو ينصت ...

ها إنه قد إلتفتَ وهو ينظر إلى الرجل العجوز، إنه يتجه نحو الرجل العجوز ليجلس القرفصاء أمامه ويخبره عن أمرٍ ما... وأتخذ الرجل العجوز وضع التربع جلوساً وأخمد سيجارته في الأرض ونهض واقفاً، وكان نمط قيامه ووقوفه لا يليق بمن هو في مثل سنه، بدوره دنا من النافذة.. فرفع عدد منهم رؤوسهم ممن كنتَ تعتقد حتى تلك اللحظة أنهم نائمون وبدأوا يحملقون في الرجل العجوز... وصل الرجل العجوز إلى النافذة وتفرس في وجه كرميان فهزا رأسيهما لبعضهما بعضاً كما يلعب طفلان، لقد دفعته هزة الرأس من قبل كرميان أن يقترب أكثر من النافذة ... وبدأ ينظر من خلال كوة الكارتون كما كان يفعل كرميان، يبدو أنه كان يتحدث مع أحدهم.. ولم يمض طويل وقتٍ حتى ترك مكانه قرب النافذة وأدار ظهره للنافذة، كانت إبتسامة طفولية ترتسم على شفتيه، لم يكن يرتدي

دميره، كان يرتدي بلوزاً باهتاً وسروالاً طويلاً أبيض اللون، كانت تكته تصل إلى ركبتيه، كأنه لم يكن ذلك الرجل قبل لحظات، كانت عيناه تشرقان، وكان يبدو أنه أستمد بعضاً من القوة والمعنويات، وكان كرميان رافعاً رأسه بالقرب منه وهو يرنو بنظره فأنحنى وقبّلَ رأسهُ، كان واقفاً لا يدري ماذا يفعل، لا يجلس ولا يعود إلى مكانه، وبقي للحظات على هذا الوضع: (يبدو أنه سمع خبراً مفرحاَ...ولكن أي خبرٍ مفرحٍ؟) كان صابر يردد هذا بينه في سرّه. تمعن في أرجاء الغرفة فرأى صابر، لقد بدأ يتحرك ويسير (إنه يتجه نحوي!).كان صابر يتخيل هكذا.. فتقدم ليجلس متربعاً أمام صابر.. فتح فاهُ وأراد التفوه بشيء ما لكنه توقف. أنه لأمر جيد أن تصغي إلى هؤلاء سكان كرميان، فلن يدعوك إنهم سيحكون لك بالتفصيل كل ما في قلوبهم .. قدمَ كرميان أيضاً وجلس أرضاً... دنا الرجل العجوز برأسه. كان صابر يرنو إلى لحيته البيضاء بعين التقدير والعطف..كانت متباعدة وخشنة، ولم تر موس الحلاقة منذ ايام، وكان شاربه قد أصفرّ عند فتحة أنفه، لم يبق لديه أسنان سوى نابين أثنين.. فلم يستطع صبراً وبدأ قائلاً:

ـ إبدأ يا خدر.. بدوري كنتُ أعرف سبب إستعجاله..فيرفع عقيرته، وا أسفي على مقام الـ(آي آي) و(الله ويسي) الذين كان يغنيهما ساله، حين كنا نصلُ إلى هضاب (اللك) ونجتازها إلى سهول (جالودوانه) يستأنف الغناء.. ويغني أغنية (يار غزال) ليتردد صوته في سماء القرية معلناً خبر وصولنا إلى القرية لأهله وحبيبته.. حين كنا نصل إلى أطراف القرية كنا نرى (كورجي) عند آبار المياه وقد خرجت بحجة جلب المياه. وكان يستحثني حين يرى كورجي ويقول لي: (خدر لقد زال تعبـي..) .. (لكن مع أسفي الشديد فالقسمة والنصيب لم تجمع بينهما. فغادر إلى قريتنا وأتى إلى قرية (برايم غلام). وقد خطبتُ بنفسي لوالد كرميان هذا إمرأة أنجبتْ منه ولدين، غير أنها توفيت.. من فضلك كرميان أجلب لجدكَ ذلك الكيس..عندما نهض كرميان .. دنا رأسه مني ..وا حسرتي لقد سقط والده جريحاً عند أطراف القرية، نزلتْ بضع دموع من بين لحيته البيضاء كأنه أعدها مسبقاً...ماذا تقول لو حكيتُ لكَ ماذا فعلوا بنا... ما إسمكَ؟

ـ (خادمك صابر ..صابر..).

ـ آه .. يا بني ماذا فعلوا بنا.. إذا لم يقارنه المرء بذلك.. حين يذكرون العدو اللدود، فقد كان هؤلاء أكثر الأعداء قساوة وغلظةً وجفاءً.

قصفوا القرية عند شروق الشمس، وشرع الناس بالخروج منها، لم تسنح الفرصة لأي إمريء أن يسأل عن صاحبه.. بدأ الصراخ والعويل ونباح الكلاب .. وإطلاق النيران عند حافة القرية، فأصيب عدد من الناس داخل القرية.. إبني صابر لو كانوا يسمحون لنا فقد كنا سنتدبر أمرنا ... وكنا سنرحل ونغادر ...ولم نكن لنُصاب بهذه المأساة .. والأنكى من كل ذلك فقد وقع شرفنا بين ايديهم.. فقد أعترضت أم كرميان هذا بعض الشيء ولم تقبل الصعود إلى عربة الزيل فضربها أحد الجحوش بأخمص بندقيته وسحبها بصورة تمزقت على إثره ياخة ثوبها وبان صدرها ومن حسن الحظ فقد قامت إمرأة بتغطية صدرها بشالها.. صابر لقد فعلوا بالقرى الواقعة في الطرف الآخر من حوض روخانه بما فعلوه معنا. كانوا قد خصصوا أحد الجحوش لمرافقتنا في عربة الزيل حيث قال دون أن يسأله أحد: إنهم سينقلون سكان القرى الواقعة في الطرف الآخر من روخانه إلى مكان آخر، بينما سينقلونكم إلى دوز.. إلتفتَ وهو يقول: إن بعضهم من سكنة (تازة شار)... وهؤلاء الأربعة هم من سكنة (ميل ناسر).. والبقية فقد أتوا بكل واحد أو أثنين منهم من قرية مختلفة...

وجميعنا لا نعرف أخبار ذوينا، ولا نعرف حقيقة أين حل بهم المقام، إن ما يشعر به هؤلاء من صداع وصعوق وإندهاش يعود إلى أنهم لا يعرفون أخبار أفراد أسرهم...

ليس في إستطاعتي الهرب، ليس لدي قوة الأيام الخوالي حين كنتُ أقطع المسافة بين (الخالص) و(برايم غلام) على مرحلتين... جلست وقلت ليكن ما يكون، وهل هناك أمر أمرُّ من الموت؟! ... فدفعتُ (كولشن) والفتاتين المسكينتين و(شاسوار)، وقلتُ لهم أذهبوا أنتم ولا يهمكم أمري.. كنتُ ألفُّ سيجارة حيث رأيتهم يقودونهم من الطرف الآخر فسرت قشعريرة باردة من أخمص قدمي لتخرج من قمة رأسي.. وكانوا كفرة فجرة لدرجة أنهم لم يسمحوا لي بمرافقتهم... فسلموني إلى أحد الجنود، وفي هذا الوقت أتوا بـ(كرميان) .. وأصعدوا في مرأى مني (كولشن) والفتيات في عربة زيل فيما وضعوا (شاسوار) مع عدد آخر من الشبان في عربة زيل أخرى... وقد أبلغوني الآن بأن (كولشن) والفتيات موجودات في منزل أحد أقاربنا... كانت (كولشن) تقول لي مراراً: (أيها الحاج لنترك هذه القرية

ونذهب لنسكن في زاوية من زوايا إحدى المدن مسالمين حتى يفتح الله لنا فرجاً) فلم أصغِ إليها.

لقد أنقضى منتصف الليل ... ولا يزال الثلاثة مستيقظون. لا تسمع سوى أصوات شخير وهذيان وأنين النائمين فالصمت يخيم على الغرفة.. وقل هدير محركات السيارات مقارنة بالمساء، وتختلط أصوات ضوضاء وجلبة مبهمة بنباح الكلاب في الخارج بين آونة وأخرى. لقد ثقل جفناه، وكأنه في البيت يجلس جنب والده، وضع رأسه على فخذ صابر وأستغرق في النوم.. ولم يتحرك صابر بدوره كي لا يستيقظ من نومه...

كان حمه غريب يغطي وجهه بشماغه، فأستغرق في النوم وهو جالسٌ، فاغراً فمه، بحيث يرتفع وينخفض شماغه عند مستوى فمه عندما يتنفس.. كان العم خدر يلف سجائره وهو يسترق النظر إلى صابر مرة أو مرتين.. وكان صابر يرنو بنظره إليه ... كان أنفه رفيعاً وطويلاً وقد أنعكف كمنقار مالك الحزين نحو الأسفل قليلاً، وقد غطت لحية ناصع البياض ذقنه، لكن عيناه لا زالتا يقظتان واعيتان، يتحدث صابر مع نفسه ..(لم تكن همومكَ شحيحة .. لتكتمل بهموم هذا الرجل العجوز...يبدو أن لدى كل واحدٍ من هؤلاء هموماً أكبر من صاحبه، أيمكن ألاّ تفعل آهات وحسرات هؤلاء الناس شيئاً؟! وألاّ يبادر أحدٌ للإستجابة لهذه الصرخات والإستغاثات؟ ...

يحملق في لحيته البيضاء، يحملق فيها دون أن يرف جفن... تتحول لحيته رويداً رويداً إلى شليلة بيضاء، وتكبر الشليلة، ويرى في داخل تلك الشليلة مناطق عديدة.. تسكنون قرية (زنانه)...لقد أتشح السهل المقفر شرق ئاوة سبي على مدى البصر بالبياض! لقد تساقطت الثلوج في كرميان!! إنه أمر غريب ونادر، كنتَ مراهقاً، وكنتَ أنتَ مع عدد من الشبان والمراهقين تستخدمون السلوقي لصيد الأرانب، لن يدوم المشهد الذي يبدو أمامك وقتاً أطول...يغيم المشهد.. كنتَ توشك أن ترى الأشياء وهي تختلط ببعضها.. يبدو السهل تارة أخرى .. لكنكَ لن تراه متشحاً بالبياض، بل عبارة عن سهل قاحل أجرد، وقد أصفرّ كل شيء، الناس يمنون النفس بثلوج وخير العام الماضي، إن إنحباس المطر في الشتاء الماضي تسبب في إنتشار الجفاف، لذى ترى الناس يتجهون زرافات نحو الجنوب.. بدوركم ترحلون، ترى ذلك بوضوح في أتون الشليلة.. كان الوقت ليلاً وكنتم قد حملتم كل

ما تملكونه من أغراض وحاجيات على ظهري حمارين، وكان بدرٌ جميلٌ ينشر نوره الفضي على ذلك السهل المترامي، ترى المشاهد أمامك أحياناً بسرعة وأحياناً على مهل.. واللحظات السعيدة نادرة وقليلة وها إن المشاهد تختلط ببعضها تارة أخرى، وكنتَ تميز ذلك المشهد وهو عبارة عن غرفة وأنتم متواجدون في المدينة، تتغازل مع فتاة من فتيات جيرانكم.. تتسارع المشاهد.. الزمن هذه المرة هو أواخر الربيع، هناك قطع من السحب تحجب أشعة الشمس، وجل سكان المدينة كبيرهم وصغيرهم ينظرون من فوق أسطح المنازل إلى سلسلة التلال الواقعة شرق المدينة... ترى المشهد أكثر وضوحاً.. ولن تقف في تلك الليلة وتتناهى بضعة كلمات من كلمات ذلك اليوم إلى مسمعك: لقد أحرقوا القرى.. وتودع أصدقاءك حتى ثماني سنواتٍ قبل الآن. تحمل حقيبة تحوي بعض الكتب وبعض الحاجيات الضرورية الأخرى، والدكَ غير راضٍ.. وأمكَ تتوسل بكَ ألاّ ترحل، وصلنا إلى قرية (زنانة) عند الظهر... فرأيتَ ملامح وجه العم خدر رويداً رويداً بوضوح كما هو، مطأطأً رأسه وهو يدخن.

ـ (عمو.. عمو) ناداه كرميان مرة أو مرتين.

ـ (يا روح عمو...).

ـ (أريد أن أتبول...).

أمسك بيده وأخذه إلى حيث الباب.

ـ (هذا الطفل يريد أن يتبول ألا تفتحون لنا الباب؟).

ـ (لا يجوز ...) رد عليه صوت من وراء الباب.

ـ (ليتبول على نفسه ...).

****

عندما حل الصباح زجوا بثمانية أو تسعة آخرين يدفعونهم دفعاً. عراةً حفاةً، كانت الدماء قد سالت على وجوههم، بما أن الدماء كانت قد جفت على وجوههم فإن ذلك يعني أنهم أُعتقلوا منذ مساء البارحة أو في وقتٍ أبكر. ولم يكن أحدهم ليستطيع الجلوس فمددوه بينهم وجلسوا حوله، لمس أحدهم ساقه وأردف قائلاً:

ـ (إنها مكسورة...).

كانوا صامتين وهم يتفرسون في أرجاء الغرفة وكأنهم يطلبون المساعدة ويجدوا أحداً لديه إلمام وخبرة في الكسور. وكان جل من كانوا في الغرفة ينظرون إلى هؤلاء الأشخاص الثمانية أو التسعة.. قام العم خدر على مهل وأتجه نحوهم.. ففسحوا له مكاناً، فمسد قدمه بيده، رفعها قليلاً وأعادها على مهل، ودون أن ينبس ببنت شفة مدّ يده وسحب حزام أحدهم فقام ونزع حزامه.

ـ (أمسكوا يديه.. ليجلس آخر على ساقه هذه ...).

وكانوا ينفذون كل ما يأمرهم به العم خدر.

ـ (رحمة الله على من يمتلك (أمزك)ـاً طويلاً). فلم يتلقى الرد من أحد... نهض وعاد إلى مكانه وأخرج عصاه من تحت دميره... وسلمها لأحدهم.

ـ (أكسرها إلى أربع قطع). فكسروها إلى أربع قطع، (أمسكوا به). أنزل إحدى يديه إلى الأسفل ورفع بيده الأخرى ساقه.. (آه ..) صرخ الرجل بهذه العبارة ومن ثم مالَ رأسه.

ـ (لا تهتموا..الأمر لا يدعو إلى القلق).

وضع قطع العصى على ساقه وقام يشدها بحزام الرجل... كان أحدهم يتحدث مع العم خدر:

ـ نحن من سكنة قرية (كورومور).. كانوا ثمانية شبان ودودين، عدا الذي كسرت ساقه حيث كان الشيب قد بدأ يدب في لحيته، (كنا قد أختبأنا منذ ثلاثة أيام في تلك البراري والوهاد، لم نتناول شيئاً منذ يومين عدا المياه.. لقد أكتشفوا أمرنا بواسطة السمتيات) أتوا ببعض الأطعمة لهم، فبدأوا يأكلونها صامتين.. ووضعوا قطعة خبز وحفنة تمر جانباً للرجل الذي كسرت ساقه... فكر أحدهم :(لا أعتقد أن أحداً بقي هناك، لقد أتوا بهم جميعاً)...

إن كرميان خالية الآن عدا الذين رحلوا ونفذوا بجلدهم، أو الذين وصلوا المدن سيراً على الأقدام سرّاً وأختبأوا في منازل الأقرباء والمعارف، أو الذين تبعثرت جثامينهم المتروكة في الأخاديد والأودية وأزقة القرى الخالية، إن كرميان خالية، إن المناجيل التي كانت تزيت بالزبدة والمشحاذ والمسن مع مهود الرضع تقبع الآن تحت أنقاض المنازل المهدمة... والغلال تولول وتلطم وتبقى واقفة.. وتناثرت المواد الغذائية والبرغل والشعرية والعدس والحمص في

أزقة القرى، الصاية والدمير الرجالية المعدة للأتراح والأفراح والمحفوظة في صرر، والأزياء النسائية المتنوعة من مختلف أنواع الأقمشة والمعدة للرقصات الكرميانية تتلاعب بها الريح هناك حتى تلتصق بالنباتات الشوكية أو تظهر زاوية منها بين الأنقاض تتلاعب بها الريح. والدجاج والديوك والمواشي التي لم تمتد إليها الأيدي ولم تسلب وتنهب تشتت في العراء وهي توقوق وتصيح وتمأميء وتخور في وجه السماء...وأصبحت الكلاب الأليفة والجراء وكلاب السلوقي الضالة بلا أصحاب وهي تتبول على بلاطات وأنقاض منازل أصحابها وترفع خراطيمها نحو السماء أحياناً وتعوي عواءً رفيعاً وطويلاً... إنها مقفرة الآن... مقفرة وخالية ليقضي الله على هؤلاء الذين قضوا على الحياة فيها.. لن يُسمع في تلك السهول المترامية صوت لإنسان أو أغنية يار غزال أو مقام ألله ويسي ولا سَوْزَة سَوْزَة.. ماذا حدث؟ ماذا الذي وقع؟ أيها الناس لقد تعرضت كرميان إلى إبادة، فلن تروا بعد الآن من يزرعون الخضار عند حواف روخانة وحوض آوة سبـي وضفاف سيروان!! واهٍ .. لن تمتد بعد الآن أنامل فتيات كرميان لكعوب وشفلاح وكمأ وفِطر سهل (بتكي) وهضاب (زنكنة) وسهل (شاكل)، ستنبت من تلقاء نفسها وستنمو وتذبل وتموت في أماكنها... آهٍ .. يا أخي.. آهٍ .. إن كرميان مقفرة.. ستفقد بعد الآن الجمال الذي كانت تتمتع بها.. كرميان جميلة بأهلها .. ولن تبقى لياليها المقمرة، ولا لربيعها أي جمالٌ... وتستحيل إلى سهول جرداءٍ مترامية مخيفة... وستتحول سهولها الخصبة إلى أرض بورٍ بلا خيرٍ وبركةٍ، فتنبت فيها أنواع الأشواك عوض الأزهار البرية، وستقوم كافة أشيائها بالتعبير عن مواساتها من أجل سكانها ..حتى مقامات ألله ويسي وخاوكر وخورشيدي تعبر عن مواساتها ... لماذا تفعلون بهم هكذا؟ يبدو أنكم تبيتون لهم نية سيئة؟! لا تفعلوا وإلاّ فإن جريرة هؤلاء المساكين ستقع في أعناقكم، إلى أي جهة تقتادونهم؟ إن هؤلاء الكرميانيين كالأسماك فالأسماك لا تعيش من دون ماء وهؤلاء إن أبعدتموهم عن كرميان فسيموتون .. ولن يستطيعوا العيش في أي مكان في هذا العالم.. وإن صادف مرة وأبتعدوا فيها عن بعضهم جراء إنحباس المطر والقحط والجفاف فإن حنين كرميان يضطرهم ويدفعهم للعودة إليها، وعندما يطأون أرض كرميان بأقدامهم يأخذون قسطاً من الراحة ويتشهدون شهادةَ حقٍ. (لقد أستبد بنا الحنين ...!!). أطلقوا هذه الكلمات وهم يمدون إياديهم إلى التراب

لينثروا حفنة منها على أجسادهم، عندها يستعيدون وعيهم.. وإن أراد كرمياني أن يبني له كوخاً ولم يجد ماءً يصنع الطين بدموعه، ويغطي سقف كوخه بنبات البردي والقصب والأعشاب الموجودة حوله ... إلى أين تقتادونهم؟! .. لأقول لكم بصراحة: فإن أقتدتموهم إلى الجنة فإنهم سيعتبرون أنفسهم غرباء.. ستأخذونهم لا محالة... إني أقولها لكم لوجه الله فلن ينجو منهم أحداً. ستغدو آهات وحسرات وتأوهات هؤلاء العجزة والنساء الصم البكم والشباب المساكين سهاماً ورماحاً حارقة تنغرس في ضمائركم.. إن لم يكن الآن، ففي المستقبل سيفضحكم الآخرون بتعليقاتهم وطعونهم.. وبعد موتكم فإن تراب وشجيرات كرميان هذه ستبقى وستصب جام لعناتها عليكم جيلاً بعد جيل.. وتغدو نظرات هؤلاء الأطفال الصغار وجفلاتهم في غير أوانها أشباحاً تحرّم عليكم النوم والأكل.. إذن لا تتحججوا بأن أحداً لم يخبرنا!...

****

سرت الأقاويل بينهم منذ الصباح الباكر...(سيقتادونهم اليوم ...) وكان قد تناهى إلى مسمع أحدهم في الغرفة من شخصين كانا يتحدثان في الخارج عن الموضوع.. وكان الشخص قد سمع ذلك وشرع ينشره في الغرفة:

ـ (يا جماعة سيقتادوننا اليوم ...).

فاضطربوا .. وشرعوا يدنون رؤوسهم من بعضهم بعضاً:

ـ سيقتادوننا ؟!.

ـ إلى أين ؟

ـ .....

ـ ولم نسمع أي خبرٍ عن أهلنا.

فتحوا الباب بعد أصيلٍ متأخر... فتفرس كل من كان في الغرفة في الباب... صرخ صوت أجش ملء الغرفة :

ـ (أستعجلوا .. وأستعدوا). كرّر الصوت الأجش هذه الجملة كرّتين وسحب الباب... وشرع كل من كان قد بقي لديه قطعة خبز وحفنة تمرٍ ليضعها في جيبه..فدنا كرميان من صابر وقال له وقد أمتلكه الخوف:

ـ (إلى أين سيقتادوننا؟!).

فمسد صابر رأسه بيده كأحد أبنائه.

ـ (فإن إقتادونا إلى أيّ مكان فسأحاول ألاّ نفترق...).

ـ (لم أرَ أمي ولم أسمع أخبار والدي.).

ـ (سترى أمكَ إن شاء الله وستسمع أخبار والدكَ أيضاً).

شرع العم خدر يرتدي دميره على مهل ويلملم كيس تبغه ليضعه في جيب دميره، وكان يردد مع نفسه دون أن يرفع نظره:

ـ (إلى أين سيقتادوننا في هذا الوقت المتأخر من المساء؟!).

تناهى إلى المسامع صوت في الغرفة ولم يتضح أنه يخاطب من:

ـ (أخبروني هلاّ يرانا الرب؟).

كان العم خدر يصغي فألتفت إلى الجهة التي صدر منها الصوت.

ـ (لِمَ تكفر.. ألا تكفي ما أصبتَ به من مصيبة أكثر من هذه؟! ... لا تتحدث بحماقة).

ـ (ماذا فعلتُ فمنذ نعومة أظفاري ولا زلتُ مواظباً على أداء الصلاة، وأخرجت كل عام زكاة المواشي والمال .. فقد سلبوا ونهبوا أغنامي أمام عيني ولا أحمل معي سوى عشرة دنانير).

فقطع العم خدر حديثه.

ـ (أشكر الله...).

ففتحوا الباب في هذه اللحظة ليقطعوا نصيحة العم خدر دون أن يكملها... ودخل جندي مع أحد الجحوش ...(أخرجوا واحداً إثر آخر..).

في البدء شرع إثنان يخرجان الرجل الذي كُسرت ساقه وهما يسندانه على كتفيهما... وفتحت أبواب الغرف الأخرى، فكان الناس يخرجون منها كوادي النمل دون أن ينتهوا.. وجاء ترتيب غرفتهم في مؤخرة الجميع.. ونظراً للزحام الشديد كانوا يسيرون ببطء ... كانت عربات الـ(إيفا) متوقفة عند باب البناية، حين تمتليء إحداها تتقدم أخرى لتقف أمام الباب، وقد غطيت كل عربة إيفا بالمشمع لكي يخفونهم عن الأنظار... هناك عدد غفير من الناس يقفون أمام باب البناية وفي الجانب الآخر من الشارع.. ترتفع أصوات

صراخ وبكاء ونحيب الأطفال والنساء.. وكذلك النداءات والإشارات بالأيدي... ولم يتحمل البعض الموقف فشرعوا يمسحون أعينهم بزوايا شماغهم ومشدات وأغطية رؤوسهم... وكان البعض منهم وقبل أن يصعدوهم في عربات الإيفا يلتفتون ويخرجون من الصف لكي يروا أحد الأقرباء أو المعارف، لكنهم كانوا يحرمونهم حتى في تلك اللحظات بقساوة ويجبرونهم على العودة إلى الصف بإستخدام فوهات بنادقهم... فلم يتحمل بعض أولئك الذين كانوا يقفون قرب الجدار الموقف، وبدأوا يجهشون بالبكاء...

كان الحشد يتقدم إلى الأمام ببطء فأنتهز بعض الشباب الفرصة وعمدوا إلى إنزال بعض النساء والأطفال من إحدى عربات الإيفا ودفعوهم في الأزقة ليختفوا عن الأنظار.. فأكتشف أحد الحراس الواقعة فأطلق صلية من بندقيته في السماء..فتراجع الحشد.. فتحركوا ليزجوا بهم بسرعة في عربات الإيفا، وأستقدموا عربة جيب ليزجوا فيها صابر والعم خدر وكرميان وحمه غريب وأربعة آخرين..بدأ الحشد برمي الأحجار.. وأرتفع عدد رماة الأحجار.. لكن عربات الإيفا كانت قد أبتعدت ووصلت إلى الشارع العام..

كانت عربة الجيب مغطاة بمشمع سميك يستحيل عليهم رؤية أي جهة، كان حمه غريب وصابر وكرميان والعم خدر يجلسون جنب بعضهم بعضاً، أما الأربعة الآخرون فكانوا يجلسون قبالتهم، كان هناك ثقب في المشمع قبالة صابر يمكن لقبضة إمريء أن يجتازه، يحاول صابر أن يرى الخارج من خلال الثقب.. صابر أدرى بشوارع وأزقة هذه المدينة، لديه ذكريات مفرحة ومرّة فيها.. يحاول بفراسته وفكره وعقله أن يتأكد إلى أين ينقلونهم.. أما الآخرون فقد بدأ النعاس يغلبهم منذ الآن جراء الإجهاد، يرافقهم أحد الحراس وهو يجلس إلى جوار السائق، حيث أخبرهم عندما صعدوا إلى العربة قائلاً: (الكلام ممنوع).

(حين صعدتُ إلى العربة كان ظهري بإتجاه الغرب..) وكان صابر قد حدد في دخيلته الشمس كعلامة للدلالة على الإتجاه والمنطقة التي يرومون نقلهم إليها.. (فإن كانت الشمس على يساري وبقي ظهري في إتجاه الغرب فذلك واضح إلى أين يرومون نقلنا... وبالعكس إذا كانت الشمس في مواجهتي فإنهم سينقلوننا إلى مدينة كركوك...).

كانت العربة لا تسير بسرعة.. وفي بعض الأحيان توشك أن تتوقف (يبدو إننا لا زلنا في داخل المدينة).

كان ثقب المشمع كشاشة صغيرة دائرية يعرض مجموعة من الدكاكين.. كانت الخضار معروضة فيها بصورة مرتبة وجميلة ... كانت أمي قد أحضرت لي معها خياراً، فما أكلتُ منه وقمتُ بتوزيعه على أطفال مُضيفي، يا ليتني كان لدي الآن خياراً أقضمه.. لن يرفع ناظريه عن الثقب..يشاهد صفاً من المخازن تُعرض فيها ألبسة مختلفة خلف الواجهات الزجاجية، إن ثيابي وسخة ومتربة، وجسدي متسخٌ، ليتكَ تكون الآن على ضفاف آوة سبـي ... لكنتُ أنزع ثيابي كسابق عهدي ببطء، وأضعها على الصخور المقعرة بالقرب من صفيحة الماء وكنتُ أغسلها وأنشرها على بعض الـشُجيرات ومن ثم أدلف إلى وسط المياه .. توقفت العربات.. بدءً يقشعر جسدكَ جراء برودة الماء.. لقد أستأنفت العربات سيرها..يبذل قصارى جهده لمشاهدة عددٍ أكبر من المناطق والمواقع...حتى الذين يساقون إلى حبل المشنقة لن يغضوا طرفهم عن النظر..لن يكف عن النظر... ولن يبارح ناظريه عن الثقب.. لا يبدو أي شيء..فالمنطقة مقفرة.. أعرف هذه المنطقة ..يُشاهد عن بُعد صفٌ من المنازل.. أعرف لمن هذه المنازل..بدأت العربة تبطيء من سرعتها، فقد أبطأت العربة سرعتها هذه المرة فجاة لذا فقد تمايلوا جميعاً نحو الأمام. يبدر من كرميان ضحكة غير مكتملة، فيما يضع صابر يده لا إرادياً على ركبة الشخص الجالس قبالته والذي كان أحد الرجال الذين جاؤوا بهم هذا الصباح برفقة الرجل الذي كُسرت ساقه، كان شاباً وسيماً أسود الشعرِ تلمع عيناه، حين التقتْ نظراتهما إرتسمتْ إبتسامة على شفاههما، بدأت سرعة العربة تزداد ..ها إنهم يخرجون من المدينة..تبدو الغلال الزراعية خلف الثقب. أدركتُ الآن إلى أين سينقلوننا..إلى تكريت..بدأ صابر يفكر.. (يبلغ عدد القرى في حوض آوة سبى بين ثلاثين وأربعين قرية، وإذا كانت في كل قرية سبعين إلى ثمانين منزلاً، وإذا كان في كل منزل سبعة أفراد على أقل تقدير فكم يبلغ عددهم .. نحو أربعين ألف شخص، وماذا عن قرى هضبة زنكنة، ومنطقة جافايتي، ومن هناك وصولاً إلى (خويلبينكة) ومن ثم أنعطف جنوباً نحو منطقة جبارى، ومنطقة شوان، وحوض روخانة..وا ويلاه.. إنها لكارثة كبيرة.. حسناً فأي مكانٍ يسع كل هؤلاء البشر، في أي مكان يوجد سجن كبير يسع لكل هؤلاء؟!). مد يده وأخرج كيس تبغه ليلف سيجارة، فنهره الحارس صارخاً في وجهه كأنه ينهر طفلاً جعله يعيد كيسه إلى جيبه.. تفرس الشاب ذو العينين الوقادتين في

وجه العم خدر لبعض الوقت، وكان كرميان يضغط برأسه على جنب صابر مستغرقاً في النوم، وكان الشاب ينظر إلى العم خدر وينقل نظره إلى الحارس، يود أن يخبر صابر شيئاً من خلال نظراته ..فَهِمَ صابر الأمر.. إنه ينوي شرّاً، أفهمُ أنه ينوي شرّاً، إلى أي مكان ستهرب، نحن لا نعرف هل هناك عربات تلحقنا أم لا، لا نعرف إلى أين سنهرب إن قمنا بمهاجمة الحارس والإستيلاء على سلاحه؟ سيلقون القبض علينا. لا أعرف كيف أحاول إفهامه بعدم القيام بعمل من هذا القبيل، كان صابر يفكر بينه وبين نفسه هكذا، فقام صابر يعض شفتيه وهو يوميء إليه، فشهق الشاب شهقة خيبة ورمق صابر بنظرة عتاب ولوم ناكساً رأسه... وفجأة أنعطفت عربتهم وشرعت تسير لفترة على الحصى ومن ثم توقفتْ، كان الضوضاء وهدير محركات عربات الإيفا والزيل تشير إلى أن جميع العربات قد توقفت.. رفع الحارس زاوية من غطاء العربة لكي يرنو بنظره، لم يكن يتبعهم أحد..فرمق الشابُ صابرَ تارة أخرى بنظرة عتابٍ ولومٍ، لم يتحمل تلك النظرة الحادة فنكس رأسه... أستأنفوا السير بعد فترة قليلة، ولم يمض وقت طويل حتى أنعطفوا نحو الشرق، ليسيروا فترة أخرى قبل أن يتوقفوا مرة أخرى... أنزلوهم من العربة ... كانت المنطقة سهلاً مترامي الأطراف مقفراً... وكانت الجموع لا تعد ولا تحصى ولا نهاية لها، أمروهم عن طريق مكبرات الصوت بالجلوس، فجلسوا جميعاً، كان الموقع منطقة شاسعة مسورة بالأسلاك الشائكة، يبدو في نهايتها عدد من السقيفات، فيما تجد على اليمين عدداً من القاعات التي صقلت بالجص، هناك عدد كبير من الجنود يحتلون المكان على أهبة الإستعداد مع أسلحتهم خلف الأسلاك الشائكة، فيما تشاهد عدداً كبيراً من الحراس يحملون الهراوات والأسلاك وهم يحاصرون الحشد...

تناهى هذا الأمر من خلال مكبر الصوت إلى مسامع الحشد: (فلتقف النساء في جانب والرجال في جانب آخر). رغم أن الحشد تحرك وفق الأمر وأتجهت النساء إلى جانب وأتجه الرجال إلى جانب آخر غير أن حاملي الكيبلات والعصي أخذوا يهاجمون الحشد من دون سبب ويشبعونهم ضرباً من دون وازع من ضمير، فكان صراخ الأطفال ونحيب النساء يذيب الأحجار في ذلك السهل المقفر، كانت الأمهات يحمين أطفالهن فيسقطن تحت الأقدام، فيتيه أطفالهن.. أنقسم الحشد الآن إلى مجموعتين.. ولن يصل صراخهم وعويلهم في هذا الوقت

من الغسق إلى أسماع أحد، وكان جل هؤلاء الآلاف من الأطفال والفتيات والنساء والشيوخ يشكون السماء بشهقات بؤسهم وشقائهم، ولم يكن هناك من يراهم، ومن يسمع إستغاثاتهم، فشمس هذا المساء التي كانت تميل نحو الغروب هي وحدها من تشاهد هذا المشهد فشحب لونها كمداً وأسفاً، لكنها ومن أجل ألاّ تتحول إلى شاهدٍ وتنأي عن نفسها تهمة كبيرة سارعت لتختفي خلف الأفق.. لا يُعرف أكانت الدموع الدموية للشمس هي من جعلت لون الأفق أحمرُ، أم إن دماء أجساد هؤلاء النساء والأطفال تناثرت في السماء جراء العصي والهراوات؟ لا أعرف.أرتفع صوت أمر آخر من مكبر الصوت: (على الأطفال الذكور من سن السابعة فما فوق الخروج والتوجه إلى مجموعة الرجال)، تلا أحدهم هذا الأمر باللغة الكوردية..فأرتفعت أصوات الصراخ والعويل .. من ذا الذي يمكنه تصور وتخيل هذا الصراخ والعويل والنحيب.. فأرتفعت العصي والهراوات كرّة أخرى لتنهال على ظهور وأكتاف هؤلاء الأطفال.. لم تكن سطوة وآلام العصي والهراوات لتستطيع قهر الأمهات، ولم تكن في وسعها قهر الأمهات لتسحب سواعدها اللاتي يحمين بها أطفالهن، عندها كانت الدماء تتدفق مدراراً، فأصبحت سواعد الأمهات بمثابة مكبس تلتف حول أطفالهن وشرعت الهراوات والعصي تصاب بالخجل والخيبة والتعب، فيما كانت الدماء تسيل على الأنامل والسواعد والوجوه، وتختلط دماء الأمهات وأطفالهن.. وكانت الأم وفي ظل هذه الحالة ترفض أن تترك طفلها، فيمسك أحد الحراس الأفظاظ بساعدها ويسحبها.. ومن أجل ألاّ يتأذى طفلها، تتراخى أيادي الأم التي تعاني من الجوع والتعب والهزال، فيرمي الحرس الطفل وكأنه يرمي بصلة صغيرة. فتشهق الأم شهقة حسرة، آهٍ من تلك الشهقة الصعبة المؤلمة ...

تجهش بالبكاء بحرقة وتقول: (لتصاب والدتك بالعمى). كيف يكون البكاء هكذا! ليس بكاءً ونحيباً بل أمراً آخر! من يمكنه أن ينظر في تلك اللحظات إلى وجه تلك الأم، وتكف عن البكاء، وترنو بنظرها لتعرف إلى أين إقتادوه.. إن هذا الحشد الذي لا أول ولا نهاية له، تشطر إلى شطرين، شطرٌ من النساء والأطفال الرضع والصغار، وشطره الآخر من الذكور من سن سبع سنوات وصولاً إلى العجزة.. من دون ظهير وسندٍ ولا حول ولا قوة

محاصرون بعدد كبير من المسلحين، ممن يبدو على سيمائهم الغضب والحقد، لا يُعرفُ لماذا يصبون جام غضبهم وحقدهم على هؤلاء الناس البسطاء المساكين!!

كانت النساء يفترشن الأرض وسط المنطقة المسورة بالأسلاك الشائكة، وجاء الدور هذه المرة على الرجال لينهالوا عليهم بالعصي والركل والهراوات ليزجوهم في سقيفات.. كان معظم الأطفال جرحى ملطخة أجسادهم بالدماء.. كانت السقيفة مزدحمة وكان صابر يلتفتُ يمنة ويسرة ليجد كرميان والعم خدر وحمه غريب هنا.. كان نصفهم واقفين على أقدامهم لضيق المكان، شاهد صابر بعض الأشخاص فتعرف عليهم.. ذلك هو قاله هياس وذلك هو مجيد كاكولا، ورَشَه كوريس، وحمه سى سَر، ورَشَه منيج زنايي ... ولفتة.

لم ينبس أحدٌ ببنت شفة، كانوا شاحبي الوجوه جزعين يتضورون جوعاً ..يبدو على محياهم جميعاً الخوف والبؤس والخيبة والمصير المجهول بكل وضوح... ينظرون جاحظي الأعين دون أن يروا شيئاً..لا يعرف أي منهم لماذا يتصرفون معهم هكذا.. إن من يقومون بتعذيبهم لم يروهم من قبل ولم يصلي آبائُهم مع آبائِهم في مسجدٍ سويةً لكنهم يكنون تجاههم حقداً دفيناً لذا فالحيرة تتملكم من هذا الأمر... لا أعرف لماذا ينظرون إليهم بحقد. خيم الظلام .. لا زالت النساء يفترشن الأرض وسط المنطقة المسورة بالأسلاك الشائكة... فيما السقائف ملأى أجساداً فوق بعضها بعضاً.. نصفهم يقفون على أقدامهم ..يعمد العم خدر في هذه اللحظات أيضاً بإخراج كيس تبغه..

ـ (بلغتُ من العمر سبعين عاماً ولم أرَ أمراً كهذا!).

جلس كرميان مقرفصاً بينه وبين صابر، نظر إلى صابر وهو يلف سيجارته.

ـ (ليتهم يقتلوننا ونستريح.. ألا تسمع صراخ ونحيب أولئك النساء؟.).

يُشاهد النساء من خلال النافذة. كانت ظهور العم خدر وصابر وحمه غريب قبالة النافذة، فألتفتوا حين تناهى إلى أسماعهم صراخ وعويل النساء، وبدأ كل من كان في السقيفة برفع رؤوسهم..كانوا يودون معرفة ما الذي يحدث..كان الحراس يطوقون النساء كسوارٍ..يسحبون البعض منهن من أيديهن ويبعدونهن عن الحشد.. ومثلما كنّ يحتضنن أطفالهن، وعلى المنوال ذاته، حينما كانوا يهمون بإقتياد إحداهن، كنّ يمسكن بتلابيب ثيابها، عندها كانت الهراوات والعصي تنهال عليهن ولم يكن من المهم من منهن تتلقى

الضرب.. فبعض النساء اللاتي كانوا يعزلوهن كنّ يحملن معهن أطفالاً، وأستغرق الوقت حوالي نصف ساعة.. حيث أنقسم حشد النساء الآن إلى قسمين.. فأقتادوا اللاتي تم عزلهن ضرباً ودفعاً نحو الغرف الواقعة في الجهة الأخرى، كان صراخ ونحيب وطلب إستنجاد كلا القسمين يختلط ببعضها، وكان صراخهن وإستنجادهن يرتفع إلى عنان السماء ولم يكن هناك من مجيب..وكان صراخ ونحيب النساء هذه المرّة أكثر حدةً وحرقةً مقارنة بسابقتها حين قاموا يعزلون أطفالهن.. كان هناك رجلٌ متينٌ عريض الكتفين يجلس قرب العم خدر زحف كطفل صغير لا يزال يحبو، نحو النافذة، ونظر من خلالها نحو الخارج برهة من الزمن ثم قال فجأة:

ـ (ياويلتي تلك هي إبنتي شَونم...!). فتغيرت ملامحه، وأكتسبت لوناً كالحاً، كانت سيماؤه تماثل سيمياء غريقٍ مكثَ فترة طويلة تحت الماء، فبدأ يرتعش، وبدأ يتكلم بينه وبين نفسه بكلمات مبهمة يُسمعُ بعضها:

ـ (رباه إن الموت حق ..فأقبض روحي..آهٍ.. يا إبنتي الرزينة ...). كان قد بقي حتى تلك اللحظة في وضع الحبو، فنكس رأسه .. وسقطت بضع دمعات على الأرض الإسمنتية. ورفع رأسه بعد فترة ليجلس مكتوف اليدين.. ليرتفع نشيج و نحيب شخص آخر هناك على مبعدة قريبة منه...

ـ (إبني صابر لماذا يعزلونهن وفق ما تتوقع؟).

وجه العم خدر سؤاله هذا دون أن يرفع نظره، ولم يرد صابر على سؤال العم خدر..لكنه رد عليه بينه وبين نفسه: (إنهم يقومون بفعل كل عمل دنيء.. يا فتيات كرميان الخجولات الوقورات .. إني أعرفكن معرفة تامة وأدركُ كم أنتن شريفات.. لكن وا أسفى، كنتن لا تتناولن الغداء في حضور آبائكن وأشقائكن خجلاً، وحتى حينما كنتن تشربن الماء وصادف أن بدا ذلك لنظر آبائكن أو أشقائكن فكنتن تستدرن لئلا يرونكن حين تشربن الماء!! وطالما كانت أمهاتكن أو أشقائكن موجودات أو موجودين في البيت ما كنتن لتُحضِرن كأس ماء أو لبنٍ لضيف ما، لكن ها إن عدداً من الرجال الغرباء الفظاظ يمسكون بأذرعكن ويرمون بمشدات رؤوسكن! ويسحبونكن من تلابيب ثيابكن، ليتني عُمَيتُ لدماثة خلقكن ورزانتكن .. لماذا لا تموتن مبكراً..مهما فعلوا معكن فإنكن رائقات نقيات كحليب

أمهاتكن، أنتن طاهرات شريفات ... ومن ذا الذي يدعي أنهم لن يمدوا إليكن أيادي الدناءة والغدر؟ هلاّ يبدر منهم هذا ؟! ليست هذه هي المرّة الأولى بالنسبة لهم، ألم يرتكبوا تلك الجريمة ذلك العام في قرية (توكن)؟ ...

كان الذكور قد نفذوا بجلدهم خوفاً من الإعتقال، ولم يبق في القرية غير النساء والأطفال والعجزة، فيدخل عددٌ من الجنود وفصيل من الجحوش إلى القرية.. ويحطمون أبواب المنازل.. كان منزل كاكَولا في الطرف الأدنى من القرية فيدخله جنديان وكانت (حبة) موجودة في المنزل لوحدها وقد قامت تختبيء تحت (شف) فيكتشفانها حين يسحبان (الشف)، ومن ثم يقومان بإغتصابها بالقوة.. وعند المساء حين يعود الرجال إلى القرية، يكتشف كاكَولا (كومة) من الفحم في باحة المنزل، حيث كانت (حبة) قد أشعلت النار في نفسها لتتحول إلى كومة من الفحم.. فيهجر كاكَولا القرية ليلتها ولم يعرف أحد حتى الآن ماذا حل به...

كان الرجل المتين الذي اصابه الإندهاش حتى تلك اللحظة، قد أمسك بساعد العم خدر على مهل: (عمي ..) ولم ينتظر حتى يلتفت إليه، كان يود أن يجد أحداً كي ينفس عن همومه.. (نحن أربعة أخوة ثلاثة منا موجودون هنا.. لا نعرف شيئاً من أخبار شقيقنا الأصغر.. وزوجاتنا جميعاً موجودات بين الحشد هناك ..) واشار بإيماءة من رأسه إلى الخارج...(لدي إبنتين بالغتين وواحدة عمرها أربعة أعوام وأخرى رضيعة... ولشقيقي الذي يصغرني إبنتين وولدين ولشقيقي الآخر إبنة وولد.. أما شقيقي الأصغر فقد مضى على زواجه شهراً واحداً.. أي أن عدد أفراد عائلتنا هو أحد عشر فرداً، عدا والدي الذي نجا من الحملة، بسبب سفره إلى (طوزخورماتو) قبل أسبوع، ولحسن الحظ أنه لم يقفل راجعاً.. فهل يكون لبقائه بعدنا أي طعم.. قسماً بالله لولا خوفي من أن أموت ملحداً بلا إيمان لكنتُ أنتحرتُ الآن..).

قال أحدهم على مقربة منه وهو يصغي إليه:

ـ (يحكي لي عن الإيمان والقيامة! ...). وكان العم خدر ورغم أنه لم يرفع ناظريه عن كيس تبغه، لكنه كان يذرف دموعه بغزارة...

ما أنفك صابر أن وضع يده على ركبته:

ـ (إسمك الكريم؟).

ـ (فرج شاويس).

ـ (أخي فرج .. حالنا حالكَ جميعاً .. إن من تلقاه هنا تجده وقد أقتادوا شقيقته وأمه وشقيقه، وإن كان كل منّا يتصف بالجرأة لدرجة نصطاد الأسود من آذانها غير أننا في هذه الظروف لا حول لنا ولا قوة ولن نستطيع فعل أي شيء، فإذا كان المرء أسيراً ووقع في قبضة عدو خسيس كهؤلاء عليه أن يتوقع منهم كل شيء ...).

أردف العم خدر بصوت متحشرج:

ـ (إن الله يرى، سوف تعلم كيف سينتقم منهم ...).

رد الصوت السابق الذي تكلم منذ لحظات من موقعه:

ـ (نعم ... كيف لا يراهم ...).

شرع كرميان يحرّك يد صابر حتى جعله يلتفتُ إليه:

ـ (عسى ولعل أن أرى أمي؟). كان جالساً حتى تلك اللحظة جنب العم خدر متابعاً ما كان يتفوه به فرج.. قال هذا وهو ينظر نحو الخارج.. وفجأة أرتفع الصراخ والعويل مرّة أخرى حيث شرعوا ينهالون عليهن ضرباً... كنتَ تشاهدهم في ضوء القمر .. تشاهد إمرأة وهي تحتضن إمرأة أخرى بقوة لتمنعهم من أن يقتادوها ويعزلوها عنهن أمّا أن تكون إبنتها أو شقيقتها، فيما كان جنديان يقومان بسحبها، وجندي آخر ينهال بعصاه على المرأة التي كانت تحتضنها وتمسك بها، ولن يتوقف عن ضربها.. حتى التخلي عنها والإنفصال والإنقطاع.

ها لقد أقتادوا نساء أخريات، إلى الجانب الآخر، ولم تكن قدمي إحداهن تطاوعانها فتجلس أرضاً فيجبرونها على النهوض لتجلس مرة أخرى وتشرع بنتف شعرها ملتفتة إلى الوراء، وكانوا ينهالون عليها بالأقدام وأخمص البنادق حتى تكف عن البكاء، فسحلوها حتى أختفت عن الأنظار، فهدأت النساء بعض الشيء لتتوقف جلبتهن وبكائهن قبل هنيهات.. وأثناء ذلك إنفجر نشيج بكاء محبوس، فشاهد الواقفون أمام النافذة رجلاً يسير وسط النساء ويتوقف في مكان لينهال بالركل والصفع على إحداهن.. فأنقطع البكاء، لتصمت الباقيات. إن هؤلاء الرجال البسطاء ذوي النوايا الصافية لا

يتفحصون الأمور كثيراً، لكن صابر كان رجلاً متعلماً ومجرّباً، لم يكن يعتبر عزل النساء عن بعضهن أمراً بسيطاً، فتذكر بأنه قرأ مرّة موضوعاً من هذا القبيل ..ففي قديم الزمان، تحارب طرفان، فأندحر أحدهما، فقام الطرف المنتصر بسلب ونهب ممتلكات الطرف المهزوم، ولم يكتفوا بهذا بل قاموا بإقتياد وسبي بناتهم ونسائهم ليتاقسمونهن بينهم عند وصولهم إلى بلادهم...

ـ (فهل يمكن أن يقوموا بهذا العمل؟ لِمَ لا ...إن من قست قلوبهم لا يتوانون على الإقدام على مثل هذا العمل...).

كان يودّ ألاّ يؤمن بأفكاره هذه، هزّ رأسه لينسى وجهة نظره هذه..فشلت محاولاته... كانت فكرته تتطور... لتغدو مشهداً مرئياً يراه بأم عينيه، كان يغمض عينيه فيغدو المشهد أكثر وضوحاً، لم يكن أمره بيده كان يتوقع ذلك:

(إن فتاة كرميانية خجولة بسيطة، لا تفهم لغة أي طائفة أو شعب آخر غير لهجتها المكسّرة.. تُسلّم لرجل غريب .. ويخبرونها بأنها زوجة هذا الرجل.. يقولون لها هذا الكلام .. وهي لا تفهم ماذا يقولون لها... إلاّ إذا وجدتْ نفسها وحيدة مع ذلك الرجل الضخم عندها تدرك ماذا قالوا لها..فماذا تفعل وقتها؟ وماذا في وسعها أن تفعل؟ من ذا الذي يصغي إلى صراخها ونداءاتها؟ ..عندها تجهش بالبكاء.. وتبكي بحرقة .. وتتوسل.. وتقبل أيادي ذلك الرجل وتخبره: لدي أربعة أشقاء .. أربعة رجال من رجال المجالس..ووالدي يعرفه أهل كرميان قاطبة.. ومنزلنا محط إستراحة القوافل.. فلا تقترب مني).

غير أن الرجل لا يفهم لغتها ولا يعرف لماذا تتوسل إليه فيضطر.. و... أو يشغلونها كخادمة في أحد المنازل، فلا تعرف في أي مدينة أو جهة.. وإن أخلوا سبيلها فلا تستطيع العودة إلى أهلها وديارها...قولوا بأنفسكهم هل بإستطاعة فتاة لم تخرج في حياتها من حدود قريتها العودة من مدينة بعيدة؟! ... إذن ستفترش الأرض، ستفترش الأرض حزينة وتتذكر أهل القرية كبيرهم وصغيرهم، وتتذكر أمها واباها وأشقائها وأقربائها وأهل القرية.. وتجهش بالبكاء .. وتبكي ..جراء الوحدة والغربة التي تعاني منها.. وتنتحب جراء تغييب أهلها.. وتحزن كثيراً لدرجة لا تستطيع تناول الطعام فتموت أخيراً وتستريح...! ومن المحتمل قتلهن أو إبادتهن جميعاً ...).

كان صابر يفكر هكذا وتنتابه هذه الخواطر الغريبة .. وكان يستطرد بنفسه أخيراً.. من المحتمل ألاّ يحدثَ هذا، وكان يرد على نفسه بنفسه قائلاً: (وماذا يريد البصير (الكفيف)؟...).

****

أقتحموا الـ (السقائف) كقطيع الذئاب ...مرتبكون، وجوههم تقطر حقداً وغضباً.. لم يقل لهم أحدٌ شيئاً ولم يصدر عنهم أدنى حركة غير أنهم يكيلون الشتائم كالكلاب .. يرافقهم عدد من المدنيين.. وبإيماءة من عيني أحد هؤلاء المدنيين أنهال حاملو الهروات والعصي على الحشد ضرباً، فحدث هرج ومرج وتساقطوا فوق بعضهم بعضاً كقطيع أغنامٍ هاجمها قطيع ذئاب، وسقط عدد من المراهقين تحت الأقدام.. فكانت الهراوات والعصي ترتفع لتنهال على وجوه ورؤوس وايادي وظهور وأقدام الحشد، ولم يكونوا ليهتموا من منهم يتلقى الضرب.. ورغم شدة الضرب فقد كان الصراخ قليلاً، ولم يقصروا في الضرب فترة، حتى أدركهم التعب. وتقطعت أنفاسهم فبدأوا يكفون عن ضربهم.. وكان معظمهم قد خبأوا رؤوسهم بين أفخاذهم واضعين ايديهم على رؤوسهم..كان المدنيون يسيرون جيئة وذهاباً بين الحشد و يدوسون على أيادي وأقدام الحشد، لكنهم لا يحرّكون ساكناً ولا يصرخون خوفاً وهلعاً.. يعزلون الشباب.. يأمرونهم بالوقوف على أقدامهم ويخرجونهم عبر الباب.. أنتَ ..أنتَ ..أنتَ.. عزلوا عدداً كبيراً..حين شاهدتِ النساء ذلك شرعن بالصراخ والعويل والنحيب في أماكنهن تارة أخرى.. وفعلوا بـ(سقائف) الطرف الآخر ما فعلوا بهؤلاء.. وفي كل مرة كانت النساء تبدأ بالبكاء واللطم.. وكان إختيار وعزل الشباب يتم برغبة أفراد هذه الهيئة المدنية الذين كانوا يدخلون الـ(سقائف) لهذا الغرض. فأقتادوا مع الشباب عدداً من الشيوخ أيضاً، بينما نجا عددٌ آخر من الشباب ما برحوا في أماكنهم.

حين أنسحبوا كان الحشد مستغربين، يحدقون في الباب مذهولين هلعين... صامتين.. جاحظي الأعين .. شاحبين.. لا يعرفون من أُقتيد منهم ومن بقي.. لم يكن الآباء يعرفون ماذا حلّ بأبنائهم.. والشقيق يبحث بناظريه عن شقيقه.. وفي هذا الصمت ..نعم في تلك اللحظة شرع فرج ينتحب :

ـ (لا أثر لرسول ولا عبدول ... رسول ... وعفدل .. لا أثر لهما ... لقد أُقتيدا.. قسماً بالطلاق لقد أقتادوهما.. آه يا خراب بيتي ... لقد خسرنا سمعتنا، وأنكسر ظهري..).

وبدأ بالنحيب.. وأستمر يبكي لفترة دون أن يوليه أحدٌ إهتمامه.. وكان كلٌ واحدٍ منهم يفكر في المصيبة التي أصابته.. وأخيراً وضع رأسه على ركبتيه ولاذ بالصمت والسكون، وكان كرميان قد أحتمى تحت إبط صابر ...وكان العم خدر قد فغر فاهه كالطفل.. أما حمه غريب فلم يتفوه حتى بكلمة إعتيادية منذ يومين.

الليل في ساعاته المتأخرة.. نور القمر يضيء باحة (السقيفة) .. وصمتت النساء وهدأن بعد أضناهن النحيب واللطم المتواصل. ورغم كل هذه المحن والمآسي التي تعرضوا لها فقد خلدت العديد منهن للنوم! حتى إن العم خدر أتكأ على كوعه وتقوقع كالطفل الصغير، كان يبدو بحجم طفل صغير ليس إلاّ، وقد غلبه النوم، وكان كرميان واضعاً يديه تحت رأسه وأستغرق في النوم.. وخلد صابر إلى النوم فترة قليلة عند بزوغ الفجر وأنتفض فجأة إثر رؤيته حلماً مزعجاً..كان فرج لا يزال جالساً على المنوال نفسه منذ المساء.. لقد بدأ التعب يدب في الظلام وبدأ يشرع بالإنسحاب.

تناهى إلى سمعه عدة مرات صوت نداء وإستنجاد (أه يا فلذة كبدي) صادر بين حشد النساء.. آهٍ من نحيب وأناة ذلك الفجر كم كان مؤثراً ومتسماً بالظلم..

كان الفجر قد حل حين دخلت عربات عديدة من بوابة المنطقة المسورة بالأسلاك الشائكة وتوقفت في العراء فأصعدوا النساء في العربات.

كان العم خدر ينظر فشرع يسأل:

(إلى أين يقتادونهن؟ يبدو أنهم سيقتادوننا أيضاً !!..).. كان صابر يراقب النساء فلم يرد على العم خدر كان صابر يتوقع أمراً خطيراً.. إنهم يريدون إبادتنا، لن يرثنا أحدٌ، وإلاّ ماذا في وسع تلكم النساء فعله؟ ذلك الطفل الذي تحتضنه تلك المرأة.. لهذا السبب بدأوا بتدمير منازلنا عندما قاموا بإعتقالنا وإقتيادنا، إنهم يخططون من أجل ألاّ نعود .. حسناً هل يجوز أن تكون هناك مدناً دون قرى؟.. سيكون مصير المدن كمصيرنا.. يعيده العم خدر إلى (السقيفة) ويبادره بالسؤال:

ـ (أيعقل أن يعيدوننا ويطلقوا سراحنا؟).

فنظر صابر إلى العم خدر تارة أخرى وارتسمت إبتسامة كدرة على شفتيه .. (كلا .. لن يعيدوننا .. إنهم يتوجسون منّا خيفة، يظنون أننا كباراً وصغاراً نشحذ سيوفنا لكي نذبحهم جميعاً، لذا فيقولون قبل أن يذبحنا أبناء الجن هؤلاء، فنحن نعرف ماذا نفعل بهم، سنبيدهم عن بكرة أبيهم ـ سنمحوا ذريتهم) شرعت عربات الإيفا تتحرك وأقتادت النساء وغادرت... فأصفرّت أوراق أغضان شجرة قوغ كبيرة خلف مجموعة المنازل قبالتهم.. وفي هذه اللحظات تناهى إلى الأسماع صوت طقطقة الباب، وصرخ صوت نشاز:

ـ (إستعدوا جميعاً ..).

ـ (ما الذي يقوله؟)، سأل بعضهم، فرد عليهم أحدهم:

ـ (يقول إستعدوا).

فأستيقظ جراء الضوضاء من كان نائماً حتى تلك اللحظة، حينما لمحوا الحشد مستعدين جالسين فجلسوا بدورهم على أهبة الإستعداد دون أن يبادروا إلى طرح الأسئلة، فأنفتحت البوابة وملأوا بهم عربات الإيفا التي بدأت بالتحرك ...

****

أينما ترنو بنظرك من تحت قدميك وصولاً إلى المدى الذي يصل إليه ناظرك عبارة عن رمال.. لن ترى بقعة خضراء، أو ظلاً، وحتى الشُجيرات الفاقعة..والأحجار المقعرة في المنطقة مغطاة بالرمال والحصى ولا تبدو للعيان إلاّ نادراً.. وفي الطرف القصي، من ناحية الشرق هناك بعض التلال، وإن نظرت إلى أي مكان فلن تر شيئاً حتى تلتقي السماء والرمال في الأفق.. حرارة الجو خانقة، حين تهب نسمة هواء فإنها تثير الرمال ولو كانت النسمة خفيفة جداً، فتلدغ الرمال الحارة وجه وأيدي المرء كالزنابير.. (لقد وصلنا ..) زف حارسان كانا في العربة هذه البشرى لبعضهما البعض.. ولم يمضِ طويل وقتٍ حتى توقفت وتجمعت العربات أمام إحدى القلاع ..

العربات لا تعد وتحصى.. وقد أستغرقت رحلتها أثنتين وثلاثين ساعة، وكان عند توقف قافلة الموت هذه لم يكن يسمح لأحد بالنزول سوى أفراد الحرس والسواق.. وكان الأطفال والشيوخ العجزة أكثر قلقاً وإضطراباً، فقد نال منهم الإجهاد والتعب، وتصور أشخاص عديدون أن هؤلاء سيموتون لا محالة.. ها إن النساء ينزلن من العربات زحفاً على

دبرهن.. وقد تخلين عن البكاء والصراخ، لن يبدر منهن حديث، ولا سؤال، وهن أجساد هزيلة لا حول لها ولا قوة.. والفرق الوحيد بينها وبين الموتى هو نظراتهن الغريبة، حتى إن بعضهن تخلين عن النظر ورفع أعينهن.. وهن يتحركن ببطء شديد وعلى مهل..

ـ (أصطفوا). لم تعر أي منهن أي إهتمام بهذا الأمر.. وكأنه لا يعنيهن فلم يضطربوا ...، يحتمل أنهن لم يفهمن القصد.. فأعادوا الأمر بصوتٍ أجش وغاضب تارة أخرى (أصطفوا...). وحين لم يعرن إهتماماً بالأمرِ ثانية، شرع عشرات المسلحين بالهجوم على تلك الأجساد الهزيلة دفعة واحدة .. وأنهالوا عليهن، فكن ضجرات من أرواحهن لدرجة لم يتحركن قيد انملة، وكأن هذه الإجساد ليست أجسادهن التي تتلقى ضربات كعوب البنادق، حتى إنهن كنّ قد فقدن القدرة على الإلتفات .. (أصطفوا) ...(فيصطفن ...).

لقد تحولت ساقا العم خدر إلى خرقة بالية، يحمله صابر على ظهره ويحطه أرضاً.. وطالت لحيته البيضاء، وأنطفأت شعلة عينيه الوقادتين..

(صابر أستحلفك بالله .. أنت وشهامتك ..) هذا هو العم خدر الذي شرع يطلب العون والرجاء؟ هذه هي الدنيا.. إنه ذلك الـ(خدر) الذي كان يقود الدواب المحملة بأحمال من التبغ بعد صلاة العشاء ويحمل بندقية ذات الإطلاقاتٍ الخمس قاصداً طريق الخالص وحيداً ليصل عند بزوغ الفجر إلى صحراء (قرفة)، ويتوقف ليأخذ قسطاً من الراحة ويقوم بإعداد شاي ثقيل.. ومن ثم يواصل مسيره.. ويصل في المساء إلى الوجهة المقصودة ليقوم بمقايضة تبغه بالتمور ويعود فجراً.. هذه هي الدنيا وعلى كل إمريء ألاّ يتفاخر بنفسه ..

ـ (وهل بقيت الغيرة؟!) لقد رد صابر بهذه الطريقة على العم خدر وحمله على ظهره، وكان العم خدر قد وضع رأسه على كتف صابر ممسكاً بذراعه.

ـ (عزيزي صابر ما إسم هذا المكان؟).

ـ (عمي يسمونها نقرة السلمان).

قلعة كبيرة ذات طابقين، وفي منتصف البناية هناك بوابة حديدية ذات مصراعين، وقد بنيت القلعة على مساحة من الأرض على جانبي البوابة، ومن هناك يبدأ سور عالٍ نسبياً قبل أن ينعطف...

إنفتحت البوابة وأَدْخلوا النساء، وكن قد وقفن ساعة من الزمن تحت أشعة الشمس، وكان بعضهن يحملن أطفالاً في أحضانهن، وكانت أشعة الشمس تنشر حرارتها على الحشد، فغاب بعض المسنين العجزة عن وعيهم جراء شدة الحرّ، وهرع من كانوا بجنبهم يستظلونهم بيشامغهم ومشدات رؤوسهم .. وتحرك السير..

أتى الدور على الرجال ... حمل صابر العم خدر على ظهره بعد أن كان قد تركه فترة على الرمال... فسقط أحد المسنين على وجهه في المقدمة فقام رجلان يسندانه..وتم تسجيل أسمائهم في الداخل، فأقتادوا من كانوا يقلون العربة التي كان يقلها صابر إلى الطابق العلوي.. كانت للقاعة نافذتان صغيرتان تطلان على باحة واسعة وكبيرة..كانوا يشاهدون قاعة النساء من النافذة، كان العم خدر يتنفس بشق الأنفس فنزعوا (دَميره) ليضعوها تحت رأسه ..

ـ (عزيزي كرميان خذ هذه الطاقية .. وهففه ....).

كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه بصورة متقطعة وهو يلهث.

ـ (إلى .. أين ..أقتادوا.. النساء؟!).

ـ (أعتقد إنهن في القاعة السفلية، فإن رفعتَ نظركَ ستشاهد نافذة ردهتهن...).

ـ (أنظر... إنك سترى بقايا الشماغ والحاجيات وفتات الصمون مرمية هنا وهناك في هذا المكان، يبدو أن أناساً آخرين كانوا يسكنون المكان قبلنا.. فإلى أين أُقتيدوا؟ ...).

ـ (قبل أن نصل إلى هنا، شاهدنا قلعة هناك في إتجاه الشرق، من المحتمل أنهم أقتادوهم إلى هناك ..).

كان كرميان وحمه غريب قد غالبهما النوم جنب بعضهما، فقد كان لتعب ذلك الطريق البعيد وجوع الأيام القليلة الماضية أثره في تغيير ملامح هؤلاء الناس إلى حد بعيد، فإن لم تكن تدقق النظر فإنك لن تتعرف على حتى أقرب الأقرباء إليك، فكيف تغيرت ملامحهم ووجوههم خلال هذين اليومين، لن تصدق أن يكون هؤلاء هم بشرٌ ممن كانوا يعيشون قبل أسبوع، لقد طالت لحاهم وجحظت عيونهم، وثقلت جفونهم، وكأنه أضيف عشر سنوات إلى أعمارهم ..

كانوا يجلسون متربعين عل الجانبين، وكانوا يتطلعون في أرجاء القاعة للبحث عن معارفهم أو آبائهم أو أشقائهم أو أقربائهم ليدركوا هل جرى عزلهم؟ أم نقلوهم إلى ردهات أخرى؟ وقد بدأ البعض منهم ترتيب أماكنهم ، وقد أفرش من كان لديه بطانية وأخرج حاجياته من (غرارة) وقام بفرش غرارة أخرى.. فيما أنبطح البعض منهم على وجوهم على الأرض الأسمنتية..

تطلع صابر بنظره في أرجاء القاعة وقال يحدث نفسه: (من حسن الحظ إننا لمْ نُعزَلْ.. هذا هو العم خدر. وهذا حمه غريب، يا كرميان، وأين فرج ؟!).

ـ (لقد أقتاده عسكريٌ إلى الجانب الآخر).

وفي هذه الأثناء دخل حارسان إلى القاعة، كان أحدهما ضخماً بشوارب منفوشة، وكان يحمل غراراً على ظهره، وشرع دون أن يتفوه بكلمة يرمي بصمونة وحيدة أمام كل واحد منهم مبتدءاً من أولهم جنب الباب دون يسلمهم إياها يداً بيد، فيما وضع زميله ذو الذقن المجعد صفيحتين من الماء على الأرض، وبقي واقفاً حتى أنتهى زميله من توزيع الصمون، ومن ثم غادرا مثلما دخلا صامتين...

وأقترب العم خدر بشق الأنفس من الباب وهو يئن وأسند كتفه إليه:

ـ (صابر أسمع كلام عمك وأخبرهم بهدوء أن يقتصدوا في أكل الصمونة).

ـ (عمي أي إقتصاد، إنها صمونة وحيدة، ومن ثم أنهم لم يتناول شيئاً منذ أيام..فكيف يقتصدون؟).

وكان معظمهم قد ألتهموا الصمون قبل أن يغادر الحارسان.. وأقترب أثنان منهم من صفيحتي الماء وهما يتمايلان .. ولم يكن هناك أي شيء ليرتشفوا به الماء..فتوقفا وأراد أحدهما أن يرتشف الماء بشفتيه وأمسك بالصفيحة .. ولم يستطع أن يحملها.. فلم ينبس ببنت شفة وتطلع ليرى كأساً من الألمنيوم على حافة النافذة القريبة من العم خدر، فقام على مهل وأنحنى ليأخذ الكأس.. وأرتشف ثلاثة كؤوس من الماء دفعة واحدة.. وتوجه آخرون إلى صفيحة الماء .. وكان العم خدر ينظر إليهم فلم يحتمل لأنه جرّبَ ذلك ويدرك ماذا يعني العطش... ففي مواسم الصيف حينما كان ينوي السفر إلى الخالص، كان يعد (مِطرة) من الماء منذ المساء، وكان يعلقها في بردعة دابته، وكان لا يشرب منها الماء حين

يدركه العطش حتى يصل إلى صحراء (قرفة).. وقد نسي مرةً (مِطرته)!! فحين أجتاز جبال حمرين وولج تلك السهول الجرداء، أراد أن يرتشف رشفة ماء، ماداً يده إلى الـ(مِطرة) فلا يجدها.. فيقول .. لعنة الله على الشيطان .. ويشعر بقشعريرة تسري في قلبه، ولن يصمد في قطع مرحلة من الطريق ..فيداهمه العطش ..فيشاهد سراباً.. يفرك عينيه دون فائدة .. وكان يشاهد أشياء غريبة.. فيتصرف بحكمة ويعقد لجام دابته حول معصمه ويتشبث ببردعتها بقوة.. فيترنح ويتمالك نفسه .. وتتغوش الرؤية أمام عينيه.. ليرى أحدهم يسير أمامه ولديه (شربة) ماء. وكلما يندفع إلى الامام يجده قد أبتعد أكثر .. يود أن يناديه غير أن لسانه قد تحجر ولن يتحرك في فيه.. فيغيب عن الوعي.. وحين يفتح عينيه يجد بعض المارة والمسافرين يقومون برعايته ويرشون الماء على وجهه ... (أقتصدوا إخوتي .. إقتصدوا في الماء...). وتوقف برهة، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة، لكنهم كانوا يتطلعون في العم خدر، وأستطرد قائلاً:

ـ (لقد أدركنا التعبُ جميعاً.. لقد جرّبتُ وأدرك ماذا يعني (العطش)، لكن لنقتصد في الماء مخافة ألاّ يقدمون لنا أكثر من هذا.. ليكتفي كل منّا بإرتشاف كأس واحدةٍ...)، وكان الذين يقومون بعد ذلك ليشربوا الماء يكتفون بكأس واحدةٍ ويعودون إلى أماكنهم... يقال إن المرء يعتاد حتى على الجحيم ويستطيع العيش... كم هي عنيدة وصلبة ذرّية الإنسان هذه، وكم لديه من طاقة لامتناهية؟ ... أحسنت، بإستطاعتك الصمود في وجه كل هذه المآسي والبلايا، والوقوف في وجه كل هذه الآلام والجوع والمحن، وعلى الوجه الآخر، أن تكون قاسي القلب وعديم الشفقة لدرجة تخبيء وتمنع الخبز والماء من إنسان آخر وأن تنظر إليه مجحظ العينين.. كم هو عجيب أمر هذا الإنسان ووحشي في الوقت عينه.. حسناً إنني لا أفهم لماذا يقتلوننا هكذا ببطءٍ؟.. لماذا لا يُبيدوننا جميعاً في غمضة عين.. كلا سيتركوننا نتضور جوعاً فلن نستطيع فعل شيء .. حتى إلى درجة نفقد رجولتنا.. إنهم يستهدفوننا كي ننهار على مختلف الأصعدة. حين يجوع الإنسان لا يستطيع التفكير جيداً .. لكنني لا أفهم لماذا يفعلون بنا هكذا، إنهم يتصورونا زائدين عن الحاجة، يتصورون أنهم سيعيشون برخاء وهناء لو لم نكن موجودين، إنهم بخلاء إلى درجة لا يعرفون أن هذه الدنيا الواسعة المترامية الأطراف ستسعهم وتسعنا وتسع غيرنا..

***

هذا المساء هو أول مساء في هذه القلعة سيئة الصيت، تتناهى إلى الأسماع ضوضاء وضجيج وصياح النساء في الطابق السفلي.. هناك عددٌ من الأطفال يبكون في آن واد، ويتناهى بكاء أحدهم إلى الأسماع أشد حرقةً.. لقد كف الآخرون عن البكاء فيما لا زال يبكي بدوره.. أماه .. أماه .. أماه.. ها قد أخذ التعب منه مأخذاً ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى سكتَ بدوره. أقبل بعض الرجال من الطرف الآخر للقاعة ليقتربوا من النافذة وأصاخوا السمع، لكن صوت البكاء كان قد إنقطع فعادوا صامتين، كانوا قد أقبلوا ليتعرفوا من خلال البكاء على أصوات أطفالهم ..! لا يزال كرميان لا يبرح النافذة هنا أيضاً... تُرى ماذا ينتظر هذه المرة؟ من الممكن أنه يحن إلى أمه متصوراً أنها موجودة هناك..لا يدري البعض ماذا يفعلون جراء اليأس فيقفون في أماكنهم وسع قاماتهم، ويبقون على تلك الحالة فترة من الوقت وما يلبثون أن يجلسوا مرة أخرى.

يتحدث البعض الآخر همساً مع بعضهم بعضاً، ويعرف كل إمريء ماذا يقولون، ورغم أنهم وصلوا إلى هذا المكان منذ الظهيرة غير أنهم لا يزالون يتطلّعون بإنظارهم إلى هنا وهناك أحياناً، أستند صابر على ركبتيه وتطلع إلى الزاوية القصية للقاعة، وقال هامساً كأنه يحادثُ نفسه: (.. ذلك لفتة ..وذلك هو علي منصور ..وذلك هو عزة بنكيي.. ياسين ...الحاج وهاب ..عزة نكبت ..الحاج كونية .. عمي إنهم لم يتركوا أحداً!...) وجه العم خدر كلامه لصابر (صابر أنجد عمكَ .. لقد نفذ التبغ لدي ..).

ـ (عمي ومن أين يمكن الحصول على التبغ هنا، فالناس يتضورون جوعاً ولا يجدون خبزاً ليسدوا به رمقهم، غير أنك تريد تبغاً؟).

ورغم ذلك رفع عقيرته موجهاً كلامه للحضور في القاعة:

ـ (ليشد الله أزركم، من منكم يحمل معه سجائر؟...).

ولم ينبس أحدٌ منهم ببنتِ شفةٍ.. خيمَ صمتٌ عميقٌ على أرجاء القاعة.. فنهض في الزاوية القصية من القاعة رجلٌ بدينٌ طويل القامة، ذو لحية شهباء ... كان يبدو عليه أنه خبِرَ الحياة، وتوجه بهدوء نحو العم خدر.. كان لا يزال في طريقه إليه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقل شيئاً حتى جلس متربعاً بجنب العم خدر، ومن ثم شرع في الكلام:

ـ (يا جماعة.. لقد قُضيَ علينا.. لقد أنقطعنا عن أسرنا وأولادنا)، وكأنه كان يبحث منذ فترة عن أحدهم ليخبره عما يعانيه ويضمره في أعماقه ولقد وجد ضالته الآن في العم خدر لينتهز هذه الفرصة ..(ثق ..إنني لا أعرف مصير أفراد أسرتي وهم أربعة عشر فرداً ..وأصغرهم يبلغ من العمر أربعة أشهر، وقد نهبوا وسلبوا أمام ناظري مائتي رأس من الأغنام وحصاناً وجراراً زراعياً.. وقد زرعت وبذرت أرضاً تسع لأربعة (طغارات) من الحنطة، ونبتت الغلة وارتفعت لتنتصف قامة المرء.. وتركتها كما هي.. ليس هناك من أمرٍ أسوأ أن يتطرق الإنسان إلى ما يعانيه، وكانت مضيفتي لا تبارح تستقبل الضيوف ليل نهار، أما الآن وبعد ثلاثة أيام من الجوع يرمون لي صمونة عفنة كمن يرمونها لكلبٍ.. يا ليتني لم أمُتْ لأقوم مرة أخرى بحراثة وزراعة الأراضي المحيطة بالصخرة الكبيرة وأتناول هناك خبزاً ولبناً، ومن ثم أموت.. لكن حاستي تخبرني أن تلك الفرصة لن تسنح لي ثانية وأن حسرتي هذه سوف تدفن معي ..).

كان العم خدر يتطلع إلى يده ليعطيه السيجارة التي كانت بين أنامله، غير أنه أستطرد في كلامه..(والامر الأسوأ هو أننا لا نعلم شيئاً عن (شرفنا = نسائنا)، ولا نعرف إلى أي جهة أقتادوهن.. يا ناس أليس الموت أفضل من هذه الحالة؟ غير أن الروح في مكان عصي لن تطلع بسهولة .. لقد أمضيتُ سنين عديدة في السجون والمعتقلات والتشرد، فلم يجد الخوف طريقه إلى قلبـي مثل هذه المرة... لا سامح الله علينا جميعاً إخبار بعضنا بعضاً إن رأينا أحداً حتى ولو كنا لا نعرفه، لنعرف من هو ومِن أين ومَن هُم مَن ألتقاهم.. إني شكر عبدالرحمن .. من قرية (واراني).. فالإنسان لا يعرف منْ يموتُ قبل منْ.. هذه هي الدنيا، لنشرح ما نخبؤه في نفوسنا لبعضنا البعض ..).

كان الجميع يصغون إلى حديثه بإنتباه... مد السيجارة للعم خدر... أشعلها فوراً وبدأ ينفث دخانها..

وفي هذه اللحظة دخل حارسان إلى القاعة، غير الحارسين الذين سبقاهما، فرفع أحدهما رأسه ككلبٍ يقف بين حقول الغلال صارخاً:

ـ (أسمعوا ..) فسكت الجميع.

ـ (من منكم يتقن اللغة العربية؟ ...).

فنهض صابر ..فأخبراه :(ستأتي صباحاً ومساءً برفقة أحدهم لتجلبا الصمون والماء إلى القاعة..) بدوره أوضح صابر سبب مجيئهم إلى القاعة للحضور...

قال أحدهم:

ـ (يبدو أنهم لن يزودننا بأي شيء آخر حتى الغد!).

فأردف العم خدر كمن يكون الآمر والناهي موجهاً كلامه للموجودين في القاعة (كلا لن يزودونكم.. فلم يطاول الشيب لحيتي هذه عبثاً .. ألم أقل لكم.. إذن أرجوكم أن تدخروا قطع الصمون التي تزيد عن حاجتكم للأطفال الذين لا يستطيعون مقاومة الجوع ..).

لم يعتقد أي منهم أن هناك من بقي لديه قطعة صمون بحجم ضفرٍ .. وفي هذه اللحظة بدأ العم خدر يبحث مرتبكاً عن (دَميره) فوجده ومد يده وأخرج من جيبه نصف صمونة وأعطاها لـ(كرميان)... فأخذها منه كرميان خجلاً..

ها إن الشمس بدأت تميل نحو الغروب، غير أن الظلام والعتمة بدأت تخيم على الأفق، وتكدر الأفق جراء تصاعد الغبار والحصى، كانت الريح تشتد أحياناً، لتدفع الرمال والحصى للدخول إلى القاعة من خلال النوافذ الصغيرة للسقف، لتجعل من ذلك المساء أكثر كآبة وحزناً، فشعر البعض بالإختناق وبدأوا يسعلون..وكان هناك صوت يتناهى إلى الأسماع تكاد القاعة تسمعه أو لا تسمعه.. كان صوتاً حزيناً أقرب إلى البكاء منه إلى الغناء، أدهش شواطه القاعة وجعلها أكثر صمتاً. فلاذ بالصمت مَن كان يتهامس مع زميله ورفع رأسه مَن كان ينبطح على بطنه..كان الصوت ينشد أغنية (ئاي ئاي) جياشة، نكأ جراح مآسيهم السابقة واللاحقة، مثيراً الدموع في مآقيهم المجدبة ودفع بعضهم أن يشهق حسرة...

أين هو القلب الذي سيشع نوراً

ويرنو إلى كرميان من دونكِ

من ذا الذي سيحتفل من أجل قلبه

يا ناظري من دونك إن كان القلب قدَّ من صخر

المرابع مآتم والطرق كالحة

والهموم تملأ مقامي والمضاربُ حزينة

مثلما كان من يستمع إليه في قرية (قلا) عند إقامة الأعراس وسهر الليالي والحصاد والبيادر والعودة مساءً من مواضع الدرَاس وهو يرفع عقيرته لينشد مقام ألله ويسي و(خاوكَرْ) و(آي آي) بصوته الأسطوري فينسى تعبه وإجهاده، فقد جعلهم هنا في هذه الفاجعة أيضاً يذرفون الدموع وأعادتهم الأغنية لفترة ما إلى تلال وسهول ديارهم ...

قال بعضهم (إنه لفتة ..لفتة) ..فيما أعاد أحدهم هذه الجملة مراتٍ مندهشاً كأنه يريد نشر الخبر في أرجاء القاعة : (إن لفتة موجود هنا أيضاً..)

فيما حاول صابر أن يعرّفه على العم خدر وشكر، الذي كان حتى تلك اللحظة خافضاً ذقنه على صدره جراء إنشاده، وهو يقول:

ـ (أعرفه جيداً، إنه من سكان قرية قلا.. لقد أخبرني أحد الجحوش في طوزخورماتو قائلاً: قدمت أسرةٌ ما لزيارة قرية قلا.. تربطها قرابة نسابة مع شقيقه، لقد أقتادوا معهم هؤلاء أيضاً ...).

أرتفعت فجأة صوت جلبة وصراخ وعويل ونحيب بعض النسوة ..فنهض مَن كانوا في الطرف القصي من القاعة وأقتربوا من النافذة...

شرع أحد الحراس ينادي من الباحة على صابر (صابر ..صابر ...).

قال العم خدر : (صابر إنهم ينادونكَ. فوصل أحد الحراس في تلك اللحظة إلى باب القاعة ...

ـ (صابر ...).

ـ (نعم ...). نزل صابر إلى الطابق السفلي. كان كرميان أكثرهم إشتياقاً للوقوف عند عتبة النافذة، كان ملتصقاً بها، شرع يحكي للعم خدر دون أن يلتفت:

ـ (لقد دخل الأخ صابر وأحد العسكريين إلى قاعة النساء).

كانت هناك إمرأة تبكي بحرقة، فتتناهى إلى أسماعهم زفراتها وأنينها... (ها إنهم قد خرجوا، إن الأخ صابر يحمل شيئاً في حضنه) لا زال البكاء والنحيب مستمراً..(هناك عسكري يضرب النافذة بعصاه ..) .. ولم يمرّ طويل وقتٍ حتى عاد صابر، فتجمعوا حوله ليعرفوا ما الخطب. فجلس متربعاً ناكساً رأسه...

سأله أحدهم:

ـ (أخي أخبرنا هل حدث خطبٌ ما ؟).

ـ (لقد توفي طفلٌ صغير ...).

فأردف أثنان منهم يسألان دفعة واحدة:

ـ (ألم تعرف والده؟..).

فأقتربوا أكثر، ولم يكن قد أجاب بعدُ، فقد بادر آخر يسأله:

ـ (نعم .. عزيزي .. ألم تعرف؟).

ـ (كلا لم أعرف إبن مَن كان، لكنني حين أعود غداً سأسأل...). وبعد هنيهة توقف ...(هناك العديد من الأطفال، وبعضهم وحيدون .. مستلقين على الأرض يتضورون جوعاً، لا أتصور بقاؤهم على قيد الحياة، سمعت إمرأة تقول وهي تبكي: كان يطلب خياراً من أمه، وكانت أمه قد أعطته فردة (خُفّ) طفولي أخضر اللون، وكان الخف فوق صدره حين لفظ أنفاسه الأخيرة ...).

ـ (يا خراب داري... هل وصلت قساوة القلب إلى هذه الدرجة؟ أليس لديهم أطفال!). قال أحدهم هذا وهو يوشك أن يجهش بالبكاء، ولم يكد ينهي كلامه حتى أنفجر باكياً.

ـ (لا أتصور إن ما تعرضنا له قد تعرض له آخرون...).

ـ (ليتنا إرتكبنا جريرة.. إننا لا نعرف لماذا ولأي سبب يرتكبون بحقنا هذه المأساة؟!).

ـ (لا ضير فيما يفعلونه تجاهنا، فما ذنب الأطفال والنساء ...؟!).

ـ (لم يسمح لنا معارفنا.. لم يسمحوا .. تعالوا أبقروا بطني .. أخبرونا أنهم لا يسمحون أن يلحق أذى بأي كان ..ولا يتوجه أحد إلى المدينة ولا تهجروا القرية... فرأيتم بأم أعينكم كيف تركونا وساروا بصمتٍ وخرجوا يتركوننا...).

ـ (أتتصور ألاّ يرى الله هذا الظلم؟!).

ـ (سيرى ولن يحرّكَ ساكناً ..) هكذا كان يقول كل منهم من مكانه شيئاً وينفس عن همومه وغضبه... كان شكر عبدالرحمن يريد أن يقول شيئاً، وفتح فاه مرة ليقول شيئاً، فلم يسمحوا له، ولم يكن ليعرف يوجه كلامه لمن، وأخيراً أنتهز الفرصة:

ـ (قولوا كل ما تشاؤون فلن يساوي فلساً أحمر.. أفعلوا شيئاً من أجل إنقاذ هؤلاء الأطفال ..).

كان صابر فاغراً فاه حتى تلك اللحظة وهو يفكر في تلك النساء وهؤلاء الأطفال، وأردف يقول بهمس:

ـ (أتعتقدون أن باستطاعتنا فعلُ شيءٍ؟).

ـ (كلا، إنها محاولة منّا سنقوم بها! ... إن قدموا لنا الخبز غداً ليدخر كلّ منا قطعة منه جانباً، فلن نموت جوعاً بادخارها!.. وعليك بدورك إيصالها إليهم بأية وسيلة كانت..).

فنهض أحدهم من محله وجلس القرفصاء أمام صابر: (عذراً أخي أقول كم كان عمره؟).

ـ (لماذا؟).

ـ (أقول كم كان عمر الطفل؟ ... أنا ... شقيقك الأصغر .. تزوجت من حبه قبل خمس سنوات... ولم نكن لنُزرق بطفل، فزرنا مراقد الصالحين، كما زرنا مرقد قادر كرم عدة مرات حتى رزقنا الله بطفل، وقد بلغ عمره أربعين يوماً بيومين قبل أن تنزل علينا هذه المصيبة، وحين نزلنا من الباص هنا رأيت حبه عن بعد وهي تحمل شيره في حضنها...).

كان لديه الكثير ليقوله لكن صابر منعه من ذلك.

ـ (كلا، أخي، لقد كان ذلك الطفل يبلغ من العمر أربعة أو خمسة أعوام...). وحين أطمئن قلبه، قفل عائداً إلى مكانه بصمت مثلما جاء.

وكان العم خدر، الذي كان ينفث دخان سيجارته حتى تلك اللحظة، فتفل في كفه وأخمد سيجارته بها، وكأنه كان يجلس في حقل من حقول الغلال في ديارهم ..

ـ (صابر .. ومن يقوم بمراسيم كفنه ودفنه؟).

ـ (عمي .. أي كفن .. فقد دثروه ببطانية ووضعوه جنب الجدار.. حتى الغد .. على أساس أن أقوم بدفنه خارج القلعة.. فماذا تحكي لي يا أخي ..).

ـ (يا ويلي من بلاد الكفرة هذه ..!).

فأردف الصوت الذي تكلم قبل هنيهة قائلاً:

ـ (سيرى هذا أيضاً؟ ...).

فألتفت شكر إلى الجانب الذي صدر منه الصوت، ونهض واقفاً مستطرداً وهو يزيل الأتربة عن ثيابه:

ـ (لا تكفر يا بنيّ ..).

ـ (فمنذ نعومة أظفاري وأنا اواضبُ على الصلاة والصوم .. وأخرجُ الزكاة من مالي ومواشيّ، ولم أقترب مما حرمه الله غير إنك .. سترى بأم عينيك ..). ولم يصغَ إلى دندنة الرجل، فمد سيجارة أخرى إلى العم خدر، فتسلمها العم خدر منه فوراً، وشرع يسأله بعجالة:

ـ (لم تخبرني من أي قرية أنت؟).

ـ (قرية العم خدر؟ ... لقد بدأت تفقد ذاكرتكَ أيضاً .. إني أعرفكَ جيداً.. هل تتذكر حين تخاصمت قرية زنانة العليا والسفلى حول قطعة أرض جرداء؟ .. فتوسطنا نحن عدد من وجهاء تلك القرى بينهما فتصالحا وكنتَ موجوداً هناكَ .. حين ثبتنا العلامات بعد تناول الغداء، من كان معهم ..؟).

ـ (بالله عليك.. اللعنة على الشيخوخة .. هل أنتَ شكر؟). وشرع يستهزيء كأنه نسي اين يقبع الآن.. همَّ أن ينهضَ على قدميه فوضع شكر يده على كتفه ومنعه من الوقوف ليجلس ثانية ...

ـ (لقد تعبتُ وأدركني الضنى فلا أستطيع الجلوس أكثر من هذا ..).

***

أستلقى كلٌ منهم في مكانه .. إضافة إلى حزنهم حيال ممتلكاتهم وأسرهم ومصيرهم المجهول، فكان الظلام قد أرخى بسدوله، وأنهكهم الجوع .. وحين ينهك الجوع أي إمريء سيهتم بأمره دون غيره، وعندما يستمر جوعه فسيتعطل عقله وإدراكه وفكره إلى حد ما .. ولن يفكر في أمور كثيرة.. ولا يتذكر الماضي وذكرياته إلاّ نادراً.. وحين يتذكر ماضيه، يتذكره بصورة متقطعة .. وليس في إستطاعته وضع خطط لمستقبله كمن شَبِعَ..ويسيطر عليه الغضب والحزن... ويضمر لديه العديد من النعوت الفضلى للإنسان كإبداء العطف والحنان وتقديم المساعدة، بدورهم ظهرت عليهم هذه العلامات منذ الآن... كان يتناهى

إلى مسمع صابر صوت أثنين يتحدثان مع بعضهما.. كان أولهما يقول للآخر: حصتنا هي صمونة وحيدة، ورغم ذلك عليك ألاّ تأكل نصفها..! وهل نموتُ جوعاً؟...).

لم يلتفتْ إليهما صابر، وما أنفك يريد أن يعرف من هم هؤلاء؟ وبدأ يدردم مع نفسه: (لا أتصور بأننا سنستطيع مد يد العون إليهم.. ونادراً ما تجد من يستعدون للتخلي عن حصصهم وتقديمها لهؤلاء الأطفال.. ألا ترى ماذا يقولون ...أرجو ألاّ يرى غيري ما رأيته أنا، لماذا ورطتُ نفسي في هذه المشكلة؟ .. لماذا أخبرتهم بأنني أتقن اللغة العربية!! ولكن لا ضير ورغم ذلك أستطيع تقديم حفنة ماء لطفلٍ ما.. وأستطيع أن أعرف ماذا يدور في هذه القلعة... لقد عرفت .. وماذا بعد ... ورغم ذلك أستطيع أن أتلهى بوساطته وأقضي أيامي..لعل وعسى .. أن تحالفنا النجاة ..).

كان كرميان قد غلبه النعاس.. أراد أن ينهض من مكانه وينقله إلى فراشه، فلم يستطع جراء الإرهاق والتعب.. مدّ رجليه... كان هناك كلبان ينبحان في الخارج باستمرار، ونحط أحدهما أخيراً وكف عن النباح.. أما الآخر فقد أبطأ في نباحه، وسكتَ بدوره أخيراً..يتناهى إلى الأسماع صوت بضعة أطفال وهم يبكون، وأستمروا يبكون لفترة من الوقت.. فأدركهم التعب أيضاً، فيطلق أحدهم بين حين وآخر صرخة... (لماذا تبكي .. هل تؤلمك أذنك؟ هل تشعر بالجوع؟ أيؤلمك عضوٌ من أعضاء جسمك؟ فأبكي حتى ينتقم الله لكَ ..).

حين تناهى بكاء الطفل إلى أسماع صابر تذكر الراعي .. فتطلع في هذه اللحظة إلى حمه غريب، فرآه وقد أستغرق في النوم.. وثقل جفناه...(هناك عند شجرة التوت بضعة رجال، يجلسون قرب شكارة (زبة) الأرملة، وكان صابر واقفاً. يتراءى له بضعة أشباحٍ عن بعد...وكان كل منهم يتوقع شيئاً .. إنهم ثلاثة، لا إنهم أربعة أشخاص .. ترافقهم إمرأة .. فتختفي الأشباح خلف التلال والمرتفعات أحياناً، ولم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى ظهروا للعيان ...ها قد وصلوا إلى حافة نهر (خويري)، مقتربين من منزل (خليفة جقو)، تم التعرف عليهم، إذن تلك هي أمي!! ... فيهرع صابر لإستقبالها.. يهرع ويهرع دون أن يصل إلى المكان الذي راى فيه أمّهُ!! يمنعه عدد من الرجال فيتوسل إليهم: إن أمّي قدمتْ لزيارتي، فيضحكون.. كانت أمّهُ تلطم على صدرها من بعيد... ينتاهى إلى مسمعه

صوت بكاء ليس بصوتِ امّهِ. إنه طفلٌ يبكي). فينتفض .. يجد القاعة وقد خيم عليها السكون، ليرى جذوة سيجارة في نهاية القاعة : (إنه شكر..يجلس متربعاً وهو يدخن .. فيما يقبع حمه غريب خلف كرميان.. وهو يحملق في السقف وحين أدرك أن صابر لا يزال متيقظاً، أدار جسده، وجلس على جنبه، وبدأ ينادي..

ـ (صابر .. صابر ..).

ـ (حمه غريب.. ألا زلتَ متيقظاً؟).

ـ (يا صابر إنك تعرف إبني شوان؟).

فتوجس صابر خيفة أن أحدهم أخبره، وقد تراءى المشهد أمام ناظرية كالبرق. ولم ينتظر أن يعرف ماذا يقول صابر:

ـ (هل تتذكر يا صابر حين كنتَ تأتي أحياناً لتشتري شيئاً، وكنت تناوله بعض أقراص الحامض حلو من جعبتي).

ـ (بإلله عليك يا حمه غريب من ذكّرَكَ بهذا؟).

ـ (أخبرني بالحقيقة، أليس الطفل الذي مات هو (شوان)؟..). كأنه كان يتوسل حينما كان يتكلم، وكنتَ تتوقع أنه سيجهش بالبكاء حالاً (يحتمل أنه تناهى إلى علمه) كان يردد هذا مع نفسه.

ـ (عم تتحدث يا هذا، أي طفل؟).

ـ (الطفل الذي توفي مساء أمس). حين نطق بهذه الكلمات أستعاد صابر بعضاً من وعيه قائلاً:

ـ (بالله عليك أين منه ومن شوان، ألم أرَ شوان بنفسي ..!).

ـ (هلاّ رأيت زبيدة بين النساء؟....).

ـ (في المرة القادمة حين أدخل قاعة النساء سأتطلّع للبحث عنها..).

زفر زفرةً ومن ثم أستلقى على ظهره وما أنفك يتطلع إلى السقف... (لن أتصور أن مثل هذا الأمر قد حدث في أي منطقة أخرى من العالم.. وجرى إبادة (عشرة) أو (عشرين) أو (خمسين) أو حتى مئة شخص دفعة واحدة، لكن هذه هي إبادة جماعية، وعملية القضاء على عرق بعينه، هناك بعض الحيوانات التي تواجه خطر الإنقراض، فتجري عملية حمايتها

ويمنع إصطيادها، يا ترى هل هناك من يتفوه بكلماتٍ لصالحنا؟ حسناً هل ألحقنا ضرراً بمن يحيطون بنا؟ بالنسبة لي لا أجرؤ على قتل طفل .. أو إنسان..أي حقدٍ هذا، وأية ضغينة هذه ...

كان الفجر قد حل فأستيقظوا واحداً إثر آخر، كأنهم ينتظرون أمراً مبهماً، كانوا يجلسون متربعين حزانى على أفرشتهم، سقطت أشعة شمس باهتة رويداً رويداً على الأسلاك الشائكة فوق السور، وكانت الريح تثير أحياناً الرمال والحصى وكان الغبار يمنع عنهم الرؤية لدرجة كانوا لا يستطيعون رؤية الباحة والسور.. كان على صابر أن ينزل إلى الطابق الأرضي ويحضر الصمون والماء إلى القاعة.. فأخذ برفقته أحدهم وأحضر الماء والصمون إلى القاعة ..

أردف شكر يقول في مكانه..

ـ (حصة كل واحد منكم صمونة واحدة.. أما الباقي فسيتم توزيع بعضه على الاطفال الموجودين في هذه القاعة وما يتبقي سيتم توزيعه على الأطفال في قاعة النساء..).

فلم ينبس أحدٌ ببنتِ شفةٍ.. فبدأوا يأكلون حصتهم من الصمون فور إستلامها..

ـ (بإلله عليكم لدي إقتراح أود تقديمه راجياً منكم عدم توجيه اللوم إليّ وإنتقادي..).

تناهى هذا الصوت إلى أسماع من كانوا في القاعة جميعاً.. وأنتظر برهة من يدعوه (تفضل). فلم ينبس أي منهم ببنتِ شفة.. حين أدرك أن ليس هناك من يبادر بالكلام .. أستطرد قائلاً: (أقول ... نحن بني البشر فكيف تكفي صمونة واحدة لأحد الرجال.. فإذا زادت حصة الصمون فلتكن لقاعتنا..). فأومأ العديد منهم برؤوسهم تأييداً له..وكان الذي نطق بهذه الكلمات يرتدي زبوناً أسود اللون دون أردان، وكان يقف على ركبتيه حين أنهى كلامه وبقي فترة من الزمن على هذه الحال، كان لا يتحرك وكأنه محنّطٌ منتظراً تأييده من قبل الحضور.. فلم ينبسوا جميعاً ببنت شفة سلباً ولا إيجاباً! وأستحسن الجميع ما تفوه به الرجل الذي يرتدي الزبون، (لقد بقي فيها خمس صمونات ..).. مد صابر يده في الغرارة وأخرجها ...

ـ (إثنتان منها لأطفال تلك القاعة ... ولتبقى البقية لدى العم خدر ليأكلها كل من يجوع..).

وقد أفتى شكر بهذه الفتوى وهو يقبع في مكانه ونال إستحسان ورضا الجميع بقراره هذا.. إنهم ينادون على صابر من الطابق الأسفل.. كانت جثة الطفل الذي توفي مساء أمس لا زالت منذ البارحة وحتى اللحظة على حالها ملفوفة بالبطانية وموضوعة جنب الجدار، وقد غطتها طبقة خفيفة من الرمال... وكانت هناك جثة أخرى بالقرب منها، وقد غطت بغرارة ليس إلاّ، .. فرفع صابر الغرارة على مهل ... فتعرّف عليه: (إنه رضا إبن فريق الأعرج.. إنه هو نفسه من سكنة قرية (جَوري).... نعم إنه هو...).. وكان لا يزال يحملق في الجثة، فأبلغه الحارس بأن هناك جثة ثالثة ..وكان يقصد أن شخصاً آخر قد مات وأن جثته لا تزال في الداخل.. وأشار الحارس بإيماءةٍ من رأسه إلى صابر متوجهاً نحو قاعة النساء، تبعه صابر.. فدخلا القاعة.. كانت تفوح من القاعة رائحة الجلود النتنة، وكانت الزفرات المخنوقة ورائحة الأطفال النتنة تثير الإشمئزاز في النفوس، فشقا طريقهما بين النساء حتى أقتربا من إمرأة شابة تلتمع عيناها، لكن أوجاع ومعاناة ومحن الأيام السابقة كانت قد أثرت فيها بوضوح.. وكانت قد خرمشت وجنتيها الغائرتين بأظافرها، وهي تنظر إلى طفلها في حضنها صامتة مذهولة من هول الصدمة .. يبدو إنها بكت كثيراً حتى جفت الدموع في مآقيها، وكان صابر قد روى هذه الاحداث للقاعة بهذه الصورة: (.. مددتُ يدي بهدوء وعلى مهل لأخرجه من حضنها، فلم أحتمل وأنهمرت الدموع من عيني في هذه اللحظة فسقطت دمعة على أيدي المرأة فرفعت حينها فقط نظرها عن طفلها لترمقني بنظرة، وكانت نظرتها تلك وشروعها في البكاء في آن واحد، فعرفتني فوراً وبدوري عرفتُها.. فرميت الصمونات في حضنها على عجل وأحتضنت الطفل الميت، ولصقته بصدري كفلذة كبدي وأنطلقتُ بسرعة..).

وأصبحتِ الجثث ثلاثاً.. ليصبح هؤلاء الموتى رواد قافلة موتى الغربة ..

أحضر أحد الحراس مجرفةً .. وأحضروا رجلاً آخر من إحدى القاعات لمساعدة صابر ..

ـ (لنتوكل على الله ..).

ـ (بأي وسيلة ننقلها ؟).

أشار الحارس إلى عربة يدوية، من تلك العربات اليدوية التي تستخدم لنقل الرمل والإسمنت المعد للإستخدام في البناء..

ـ (ننقلها بهذه العربة؟ ..).

ـ (نعم ..).

قال الحارس هذا ثم سار ليرفع جثة أحد الأطفال ويضعها في باطن العربة اليدوية، كما حمل جثة الطفل الآخر ووضعها جنب الأخرى.. ومن ثم أقترب من ساقي جثة رضا واشار إلى صابر ليحمل الجثة عند رأسها ووضعاها على العربة اليدوية أيضاً..فأستقرت دفة كتفه عل إحدى حافتي العربة، في وقت جثم فخذاه على الحافة الأخرى .. كان رجلاً طويل القامة، وقد تدلى رأسه من جهة، وكان صابر قد أعتراه الاندهاش .. فلم يكن قد شاهد مراسيم توديع ودفن الموتى على هذا المنوال، حين نظر إلى جثة الميت بدا له صاحبه كأن إبتسامة ترتسم على شفتيه، يبدو أن لديه شعوراً بالاستهزاء من مثل هذه المراسيم من الدفن...

العربة اليدوية تحمل ثلاث جثثٍ، جثة الطفلين وجثة (رضا)، وقف صابر خلف العربة اليدوية، دخل بين مقبضي العربة اليدوية، أنحنى قليلاً، أمسك بمقبضيها، توقع أن تكون ثقيلةً لا يمكنه دفعها، غير أنها أندفعت نحو الأمام خفيفة .. ففي أول يومٍ لي ..حين أشتغلتُ عاملاً قدوموا لي عربة يدوية كهذه.. ولم أكن أقعد عاطلاً عن العمل أيام العطل الصيفية.. كنت في الخامسة عشرة من عمري حين أرسلني والدي إلى منازل أخوالي في (أومربل) وكنتُ أعمل في نقل الغلال على ظهر البغال.. حين قدمنا إلى المدينة كنتُ أعمل خلال مواسم الصيف في نقل الحصى وإعداد الجص والإسمنت لدى (نقي) البناء... ففي المرة الأولى لم أستطع دفع العربة، فطفق العمال يضحكون ويقولون: لم يتعلم في المدرسة مثل هذه الأعمال ... فأحترق باطن كفيّ، وكأن جمرتان تشتعلان في كفيّ .. فأحمرّتا...ولم يمضِ طويلَ وقتٍ حتى برزت فيهما بثور فأستحيت أن أعلنها على الملأ، وحدي أعلم كيف قضيتُ ذلك اليوم، ففي المساء أعدتْ لي أمي طاسةً من الحنّاء، وحنّتْ بها كفيّ، وكانت جيراننا من النساء يدُعونَ أمي حين يُعدِدنَ الحنّاء .. وكانت تأخذني بدورها.. وكان الأطفال الطائشون يسرقون بعض الحناء من تحت إبط أمهاتهم وشقيقاتهم ويتجمع الأطفال في باحة المنزل ليحنّوا بها خصيهم ورؤوس أعضائهم الذكرية.. ولا زال أحد هؤلاء الأطفال

يكنى بصفة منذ يومئذٍ لم يتحرر منها ألا وهي .. (رشه حنة).. ليس من المستبعد أن يكون بيننا هنا...

ـ (قف وأحذر لقد أوشكتْ أن تَسقُط ..). لقد أعاده هذا التحذير المفاجيء إلى الواقع .. كانت جثة رضا متدلية وأوشك رأسه أن يلامس الرمال، فتوقفا.. قاما يرتبانها.. ويدوران حولها.. أنحنى الرجل الذي دُعي لمساعدة صابر وشرع يسحب العربة اليدوية من الأمام فخرجوا من باب صغير إلى خارج السور.. كانت الرمال تغطي مساحات شاسعة على مرمى البصر فطُمستْ عجلة العربة إلى نصفها في الرمال وبعد جهدٍ جهيدٍ أستطاع ثلاثتهم الابتعاد بضع مئات من الخطوات من السور، فأردف الحارس قائلاً : (هنا ...)، قال هذا ورمى المجرفة على الرمال، فصدر منها صوتٌ مخنوقٌ ... وألقى صابر نظرة إلى ما يحيط به.. (يا ألله)، ولم يعجب الحارس نظرة صابر هذه، حيث شاهد من ناحية الشرق قلعة أخرى بعيدة، قال في نفسه يمكن أن تعج تلك القلعة بأعداد غفيرة أيضاً..وعمد زميله إلى نزع دميره.. وكان رجلاً متوسطاً ذو شعر أشقر وقد أحمرّ وجهه جراء أشعة الشمس المشرقة..نزع دميرهُ واضعاً طرف زبونه بين طيّاتِ حزامه، وحمل المجرفة، ومال نحو الوراء، متصوراً بأن هذه المنطقة كمنطقة السهول لديهم، وداس على دواسة المجرفة فأختفت في الرمال .. حين أدرك أن الأمر لا يحتاج إلى أي عناء، ترك المجرفة جانباً وبدأ يزيل الرمال بكفيه.. فأزالوا الرمال شبراً أو شبرين حتى لامست أيديهم الصخور وأدركوا أن ليس في إمكانهم تعميق الحفرة أكثر من هذا.. مددوا الجثث الثلاث إلى جنب بعضها (لتكن وجوههم نحو القبلة)، فقال صابر دون أن يقصد شيئاً : (وما هو الفرق؟..)، فرد عليه بقوله : (لا يجوز عزيزي لا يجوز)..

أهالوا الرمال عليها، فأختفت الجثث. إنتصبا واقفين، ووقف الرجل ذو الشعر الأشقر ليقرأ سورة الفاتحة على أرواحهم، بدوره قلده صابر وأنتصب واقفاً رافعاً يديه .. وكان الحارس قد أبتعد في تلك الأثناء، وألتفتَ وهو يقول بصوت عالٍ : (إنه لا يحتاج ذلك، لا يحتاج ذلك ...!).

ـ (أين تسكن؟).

أردف صابر يسأله بصوت خافت:

ـ (قرية داروسَره.. داعيك يدعونني ملا محمود ملا صالح..أنا الوحيد من تلك القرية أقتادوني إلى هذه المنطقة ..وإلاّ فإن بقية سكان قريتنا والقرى المجاورة لنا فقد أقتيدوا إلى منطقة أخرى، وكنتُ قد قدمتُ ضيفاً في ذلك اليوم إلى قرية إبراهيم غلام). كان يود أن يستطرد أكثر، غير أن صابر بادر يسأله:

ـ (هل تعرف العم خدر؟).

ـ (أعرفه جيداً .. هل تقيمان معاً؟ بلغه تحياتي وسلامي (دفع العربة اليدوية تارة أخرى وعادا نحو القلعة. وقد غرق في أتون تفكير عميق حين كان يدفع العربة اليدوية..

ولا يدري أي إمريءٍ متى يموت وأين يوارى الثرى ..نوّرَ اللهُ ضريحكَ لقولك السديد:

الخلان يرقدون تحت الثرى وحيدين
فأزدانت قبورهم في طقوس آلهية
لن ندري بأي أرض سنوارى الثرى
ولن ندري بأي مجلس سنحل ضيفاً

إن من يوارى الثرى في هذه المنطقة سيحرم من نعمة الأرض أيضاً ... يبدو إننا الموجودين جميعاً في هذه القلعة ستكون هذه الرمال مثوانا الأخير واحداً تلو الآخر.. سنموت في الغربة .. وأي قبرٍ، سيوارونا بحفنات من الرمال ولن يذرف أحدهم دموعاً من اجلنا ولن يحزن أحدهم من اجلنا، بعيدين عن الأصدقاء والزملاء ... بعيدين عن الأقرباء والمعارف والأمهات والآباء.. سندفن كل هذا العذاب والمعاناة معنا دون أن يدرك أحد كيف نعيش وكيف نموت .. لأكتبَ مشاهداتي اليومية .. وإن كتبتها فمن ذا الذي سيعثر عليها... لا لأرويها للعم خدر وكرميان .. لعل وعسى أن ينجو أحدٌ منهم ..).

ـ (يا ملا ترى لماذا يفعلون بنا هكذا ولماذا نواجه هذه الماساة؟).

ـ (ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت).

ـ (هكذا ..ولِمَ لا تموتَ في ـ داروه سَره ـ وتأكلك الكلاب في هذه الأرض الجرداء ؟! .. ها ...).

ـ (قُل لَنْ يُصيبنا ...).

لم يدعه يستطرد في كلامه: (كفى يا ملا ..).

كان هناك أثنان أو ثلاثة كلاب عند عتبة الباب الصغير للسور ممددين مناخيرها فوق قوائمها الأمامية وهي تزمجر...

ـ (ملا محمود، هل رأيت كلاباً ضخمة كهذه الكلاب، فضخامة كل منها بضخامة أحد الجحوش؟!..).

ـ (ليفتديهم ألف جحشٍ..). دفع هذا الرد المفاجيء صابر إلى الإلتفات إليه.

أنتحى الملا محمود جانباً، فأنتابه الخوف من أن يهجموا عليه .. غير أن زمجرتها كانت من أجل شيء آخر.

***

وضعا العربة اليدوية والمجرفة جانباً...كانت والدة الطفل تفترش الأرض أمام النافذة، حين شاهدتْ صابر أجهشت بالبكاء، وتركت النافذة وهي تبكي لتختفي في القاعة...

ـ كأنه الأمس بعينه ..لقد مضت عدة أيام على وصولي إلى قرية قلا حين جاءت سيدة لزيارتي، حين كانت تتكلم تتلعثم (جـ جـ ئـ ـت لـ أ جـ ـل أ.. ن أ ر حـ ـب بـ ـك .. أ يـ ضـاً سـ نـ ذ هـ ـب غـ داً لـ جـ لـ ـب الـ عـ ر و س يـ جـ ب أ ن تـ أ تـي مـ عـ نـ ا..). فتحركنا في الصباح نحو قرية أومر صوفي وكان موكبنا عبارة عن سيارتي جيب وجرار زراعي وساحبة .. توقفنا عند محاذاة القرية .. قام والد سيدة يرجونا بعدم إطلاق النيران قائلاً: (لا يخفى عليكم أن سكان أومر صوفي عصبيو المزاج لئلا يكدروا علينا عرسنا هذا).. وقد نقلنا دُلبَر هذه عروساً... وأستمر الرقص والإحتفال إلى وقتٍ متأخر تحت شجرة التوت .. من ذا الذي كان يتصور أن يؤول وضعنا إلى ما نحن عليه الآن.. يا ترى أين تكون سيدة الآن؟ ...

صعد إلى الطابق الثاني وبينما كان يطأ أرض القاعة بقدميه رمقوه جميعاً بنظراتهم.. فأقترب منه عددٌ منهم، ولم يقترب منه بعضهم بل ظلوا واقفين في أماكنهم وهم ينصتون إليه ..

ـ (لقد أوصلتُ الصمونات.. في الحقيقة لم أتعرف على الطفل الذي مات بالأمس .. لكنني لا أريد أن أخفي عنكم هذا الأمر إن الطفل الذي توفي اليوم هو إبن الست سيدة بنت جبار الطويل. لقد رأيت (دُلْبَر). يجب أن أخبركم إن بقاء كل طفل في تلك القاعة على قيد الحياة صعبٌ للغاية إلاّ إذا كانت الإرادة الإلهية تريد عكس ذلك.. لقد وارينا رضا إبن فريق الأعرج الثرى أيضاً... كان يرافقني رجل من قرية (داروةسَري) يدعي الملا محمود.. كان يبلغك السلام أيها العم خدر، فقال العم خدر (وعليك السلام) وأردف قائلاً: (بإلله عليك كيف حاله)، وتدخل آخر من الجانب الآخر وهو يقول: (قسماً بإلله لقد رأيت الست سيدة.. حين أقتادونا إلى هنا وكانوا يقتادونها إلى تلك القاعات الواقعة في الطرف الآخر).

ـ (أرجوكم اعزتي، لقد أصابنا الهزال والضعف ونحن نمر بهذه الظروف، وفوق ذلك يأتي أحدهم ليخبرك بموت أحد أعزائك ..إني أقترح أنه من الأفضل عدم التطرق إلى ذلك ..).

نهض شكر عبدالرحمن من مكانه بهدوء وجاء ليجلس بين العم خدر وصابر.. كان يحمل نصف سيجارة فأشعلها وقدمها للعم خدر.. وتسلمها منه العم خدر وظل ينفث فيها، وبقيت بين شفتيه حتى وصلت حرارتها إليهما، عندها أخرجها من بين شفتيه ومن ثم سحقها في الأرض ..(أقول صابر ...) توقف قليلاً (إن ذلك الحارس الذي يرافقكم عند دفن الموتى... هلاّ يستطيع .....) (ماذا ... لماذا؟..).

ـ (أن ترجوه وتستدر عطفه بحلو الحديث والكلام، كي يخبرنا عن أحوال أولئك النسوة.. من الممكن أن يعرف ماذا يفعلون بنا.. إلى متى سيبقوننا هنا؟...).

ـ (لا أعتقد .. لكن من الممكن أن يكون بينهم من بقي لديه ذرة عطفٍ ..). إن هؤلاء هم عبارة عن مراود لآلة أضخم، ها إنهم يدربونهم منذ حوالي ثلاثين عاماً كيف يُبيدوننا عن بكرة أبينا .. وفي الحقيقة إننا لا زلنا ومنذ ألفي عام نواجه خطراً كهذا..).

ففغر العم خدر فاهه وأردف مندهشاً وهو يقول:

ـ (ماذا يريدون منّا؟).

****

كان الجوع وحرارة صيف تلك الفيافي، والهموم، وتنهدات وحسرات الإفتراق عن الأطفال والأسر ومجهولية مصيرها قد أفقدتهم العزيمة والصبر، ولم يكونوا ليتحملوا كل هذه المحن، لم يكد يمرّ يوم دون أن يواروا جثث عدد من الأشخاص تحت رمال وحصى تلك الصحاري .. سواء من الأطفال أو النساء أو المسنين.. في وقتٍ ظهرت فيه علامات الموت على ملامح البقية... وبدأ الشحوب يطغى على ملامح كرميان اليوم، وظهرت بقع سوداء على وجنتيه، إنه يرمقني بنظراته (ماذا بك يا كرميان؟ أمريضٌ أنتَ؟). كرميان لا ينبس ببنت شفة .. تدفقت الدموع في مآقيه.. يمسد صابر رأسَهُ بأنامل العطف والأبوة.. (أجائعٌ أنتَ؟). لا ينبس ببنت شفة ولا يرد على السؤال: (هذه المرة أسأل عن أخبار أمي ...). توقف وتدفقت الدموع من عينيه لتسيل على وجنتيه المتغضنتين...

ـ (نسيتُ ..من هي أمك؟).

ـ (شمة بنت درويش حسن...).

ـ (عزيزي كرميان من عيني... إن شاء الله غداً ... لكن عليك أن تقوم الآن..).

رفع صابر رأسه على مهل ووضعه على فخذه وهو يقول مع نفسه: (لقد أصابته الحمى)..

****

لم يكونوا ليعدوا الأيام كونهم كانوا لا يتوقعون الخروج وفقدوا الأمل في ذلك.. كانوا يدركون أنهم وجدوا أنفسهم يعيشون هنا منذ فترة، وإنهم في فصل الصيف وأن الحرارة لا تطاق، في وقت قضى البعض نحبه جراء إرتفاع درجات الحرارة.. وضاقتِ القاعة وغدتْ مزدحمة بهم ولم تعد كما كانت قبلاً... وفي ضحى متأخر من أحد الأيام تناهت إلى الأسماع أصوات هرج ومرج عند زاوية من الباب، قال أحدهم بصوت عالٍ مرتبكاً :(هلموا .. وأحضروا قدح ماء). فهرع بنفسه وأتى بكأس ماء على عجل ... ولم يستطع أن يشرّبه الماء..(يا ناس لقد قضى نحبه!). لينشر خبر موته في القاعة هكذا.. وفي هذه الأيام لم يكن خبر موت أحدهم يثير هؤلاء الناس، لقد غدا الموت أمراً إعتيادياً ..كان العم خدر يسند ظهره إلى الجدار متخذاً وضع الجلوس.. شرع صابر يقف على قدميه على مهلٍ، كان

أحدهم يراقبه دون أن ينظر إلى أي منهم وأستطرد يحدثُ نفسه: (كان ينادي حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ..نسرين .. آزا ...).

شرع صابر يسأل ذلك الرجل:

ـ (ألا يعرفه أحدهم ؟)...

ـ (إنه الحاج خطاب، من سكنة قرية خدر ولي).

نقلوا جثته إلى الطابق السفلي .. وكانوا يتركون جثث من كانوا يموتون في القاعات الأخرى جنب السور.. وكانوا ينتظرون حتى يرتفع عدد الجثث عندها كانوا يوارونهم الثرى بعد العصر...حين تركوا الجثة جنب السور.. كانت هناك جثة إمرأة وجثة طفل يبلغ من العمر سبع إلى ثماني سنوات وجثة رجل عجوز آخر...وكانت هناك إمرأة تنوح بصوت واهن.. نواحاً مؤثراً!..

في عصر ذلك اليوم حين نزل صابر إلى الطابق الأسفل لدفن الموتى، كانوا قد أتوا بعربة يدوية أخرى فأصبحتا أثنتين، وكانوا قد أتوا برجل آخر برفقة الملا محمود للمساعدة، ولم يكن الحارس الذي كان يرافقه حارس الأمس .. وضعوا الجثث على العربة، وبدأت القافلة تتحرك، وأجتازوا السور، وحين أبتعدوا قليلاً أجهش الحارس بالبكاء... فأندهشوا جميعاً .. وبدأوا يتفرسون في وجه بعضهم بعضاً.. ما الخطب؟ قال صابر في سرّه (..ألا يجوز أن يكون لدى بعضهم ذرة من العاطفة؟ فكيف لا تثير عاطفة من هم من نسل البشر). (هذه فرصة ممتازة.. عليَّ أن أستحثه)، فبادر يسأل الحارس:

ـ (ألا تخبرني لماذا يفعلون بنا هكذا؟).

ـ (الأمر يدهشني أيضاً.. لكن أرجوك ألاّ تحدثني عن مثل هذه الأمور بحضور الحراس الآخرين .. فقد كان أخي أسيراً لديكم فترة ستة أشهر، وحين عاد شرع يحدثنا عن شهامتكم.. من الظلم أن تواجهوا مصيراً كهذا، لكن لا حول لي ولا قوة...).

ـ (تصرف معنا تصرفاً رجولياً..).

ـ (سأحاول .. تفضل ..).

ـ (كم عدد القاعات الموجودة هنا؟).

ـ (قاعة .. قاعتان .. ثلاث .. خمس .. ثماني قاعات للرجال وست قاعات للنساء .. هل ترى تلك القلعة الموجودة هناك؟...).

أشار بيده إلى الشرق.

ـ (إنها مكتظة أيضاً.. وقبل مجيئكم بيوم كانت هذه القلعة مكتظة أيضاً... ومن ثم لا أدري ..) توقف قليلاً (وكان معظمهم من الشباب ..ولازال معظمهم في تلك القلعة ..) كان يعبر عن كلماته بصورة متقطعة وكان يخفي سرّاً دون الإفشاء به. أم إنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يجرؤ على قوله وشرع يتراجع..

ـ (وماذا عن البقية ...؟).

ـ (.....).

ـ (إذن بإلله عليك أيمكنكَ أن تأتيني بأخبار المرأة التي تدعى شمة درويش حسن ..).

كرر إسمها عدة مرات كي لا ينساه.. أومأ برأسه إشارة القبول.. بدأوا يحفرون الرمال كالمرة السابقة، ووصلوا إلى مسافة شبر ونصف الشبر حين ظهرت الصخور، ممددين الجثث بجنب بعضها البعض، واضعين الأطفال بين المرأة والرجل المسن، حيث أهالوا الرمال عليهم وقفلوا عائدين..

عندما أقتربوا من السور أمسك بذراع صابر:

ـ (هل ترى تلك الكلاب .. إنها تهرع بعد مغادرتكم لتخرج الجثث وتأكلها منذ أن بدأتم تدفنون فيها الموتى هنا..).

ـ (ماذا.. كيف ... لايجوز ... أيعقل أننا قد دفنّا ذلك؟!..).

ـ (حين تدفن غداً أحدهم، جرب لتعرف هل بقيت الجثث التي دفنتها اليوم ..!).

عند عتبة الباب شاهد الكلاب تشمم الرمال متجهة نحو الموقع الذي دفنوا فيه الجثث..

قال صابر في سرّه...

ـ (إذن مُتْ بهذه الرذالة والمأساة ولتغدو جثتك طعاماً للكلاب!).

شرع يخبر العم خدر ليلاً بتفاصيل هذه الأحداث، وأيقظ شكر كي يخبره أيضاً... وكان كرميان يتطلع إلى شفتي صابر، فتملكه الخوف حين تحدث عن الكلاب فأقترب من صابر.

ـ (أتشعر بالخوف؟!).

ـ (أنا أخاف أن ...).

ـ (لا سامح الله .. عزيزي كرميان إنك لن تموت ..).

ـ (وهل سألت عن أخبار أمي؟).

فهمس في أذنه:

ـ (سأطلعك غداً أو بعد غدٍ على أخبار أمكّ..).

فبعد تلك الليلة التي تعرّفا فيها على بعضهما بعضاً، أرتسمتْ إبتسامة جميلة على شفتيه الشاحبتين وتألقت وجنتيه ..وحينما أخلد إلى النوم لم يجفل ولم تغادر الإبتسامة شفتيه.

****

إن اللحظات الرتيبة المسببة للضجر والإزعاج في هذه القلعة لهي لحظات المساء، ورغم أن لياليها تتحول إلى سنين عجاف لا تنتهي، غير أنها لا تقارن بلحظاتها عند الأماسي.. حيث تتغير سيماء وملامح سكانها يوماً بعد يوم، ستحلف بأغلظ الإيمان أننا لسنا من كنا بالأمس... لقد طال شعرنا جميعاً .. وأختلط شعر حواجبنا بشعر شواربنا ولحانا وغدونا مبعث الهلع والخوف لمن يرانا كأننا لسنا من نسل البشر .. ونغدو يوماً بعد يوم أقل حديثاً وأكثر صمتاً وتجهماً وعبوساً..ليتني كنتُ أعرف فيمَ يفكر هؤلاء الناس؟ بمَ يحلمون، يمكن أنهم يحلمون الحلم عينه.. لن تمر ليلة دون أن أرى فيها أمي في المنام، تسألني لماذا لا تعود.. وأستعطف والدي في منامي وهو يرمقني ويجهش بالبكاء، أستغرب لماذا يجهش والدي بالبكاء ..هل يعرف شيئاً .. دون أن يخبرني ..سأمضي إلى ضفاف (آوة سبي) حيث تجد ثمار بطيخ ورقي وخيار حقول آوة سبي وقد أمتلأت بها تلك السهول.. والقرى أكثر إزدحاماً وأكثر بهجة ..أعرف أن أحلامنا تتشابه ..

لقد أصاب الحارس كبد الحقيقة: كانت هذه القلعة تكتظ بهم قبلنا.. وقد نقلوهم إلى القلعة الأخرى ..فهل لا زالوا على قيد الحياة يا ترى؟! لن يمرّ يومٌ هنا دون أن يموتَ منّا سبعة أو ثمانية أشخاص، فإن سارت الأمور على هذا المنوال فسيأتي يوم تفرغ فيه هذه القلعة ولن يبق فيها بشر .. وسيغدون طعاماً للكلاب أيضاً.. يا ترى هل سنعود يوماً.. ليتني كنتُ أستطيع إيقاف عقلي وأمنع نفسي من التفكير في كل هذه الأمور...

يبدو صابر الليلة قلقاً ومنزعجاً .. طال الليل ولا زال متيقظاً والقاعة هادئة لا يتناهى إلى مسمعه سوى صوت الشخير والهذيان ..الكلابُ تنبحُ (لقد شبعت الآن).. طفلٌ يبكي..لن يغلبه النوم.. صابر يتطلع إلى كرميان وهو نائم كالفراشة مداً كلُّ ذراعٍ من ذراعيه نحو جهة، فأرتسمت إبتسامه شبه خفيفة على شفتيه، وشاهد في هذه اللحظات بعض الكتابات على الجدار.. فتطلع إليها..

(مطلق فرحان 196) (وقد محي رقم ما بعد الرقم ستة، وعلى مبعدة منها (رجب شبيب 1970)...(كيف لم أشاهد هذه الكتابات من قبلُ ..؟) جثى على ركبتيه باحثاً عن كتابات أخرى.. فشاهد كلمة كوردية غير أن الإسم كان قد محي من منتصفه.. وفي هذه اللحظة أستيقظ احدهم وأتجه إلى صفيحة الماء مترنحاً ليجد فيها ماءً قليلاً فرفعها وأرتشف منها واضعاً إياها أرضاً، لكنه لم يبادر إلى النهوض وبقي للحظات قرب الصفيحة ناكساً رأسه.. كان صابر يراقبه فأستدر عطفه .. (إن كنتَ لا تستطيع النوم تفضل إلى هنا ..)., كان الرجل لا يزال نعساناً ويبدو أنه لم يفهم قصده.. وضع كفيه على ركبتيه ضجراً ليقف ويعود إلى مكانه..

(الليلة لن يطل علي النهار.. لهذا فأنا وهؤلاء الناس جميعاً قد تغيرنا إلى درجة كأنها عشرين عاماً ..تحاصرني ذكرياتي .. أمي.. آه أمي العزيزة.. يا ترى أين أصدقائي الآن.. أعرف أن عدداً منهم أختار طريق الغربة وغادروا.. كان النعاس يثقل جفنيه بمرور الوقت .. مدد ساقيه...فأسترخى .. لا تذهب .. لا تذهب .. يا بني لا تذهب .. أماه ..حالي حال أصدقائي .. يا بني لا تذهب.. أماه .. هذه المرة .. هذه المرة .. لن أعمل بنصيحتكِ.. لماذا الطريق خالٍ؟ لا وجود لأحد؟! وعند كلّ شُجيرةٍ يقف كلبٌ، وجل أحجار ومدرات جانبي الطريق تتحول إلى كلاب واحدة إثر أخرى .. وشرعت السهول والعراء تتحول إلى كلاب .. وكانت الكلاب تنهمر من السماء أحياناً.. لماذا يكشر الكلب عن أسنانه في وجهي! لأصرخ ...فيضيع بين نباح الكلاب !!...) حرّك العم خدر كتفه حتى أيقظه من النوم قائلاً : (ماذا بك يا صابر .. فالعرق يتصبب من جسدك ..).

ـ (بدوري حلمتُ هذه الليلة ...فليكن خيراً.. كنتُ في تلك الأنحاء... ليتني حلمتُ كل ليلة حلماً من هذا القبيل.. كنتُ على ضفاف روخانة أحرس بستان الخضار..وكنتُ قد

أعددتُ نفسي مرتباً ثيابي، فرفع عبه ليلي كعادته عقيرته وشرع يغني، وضعتُ مجرفتي جانباً وأعددتُ سيجارة .. شرع يغني مقام (خاوكر)، ثق لا زالت كلماته ترن في أذني وحفظتُ البيتَ عن ظهر قلب،إسمع..

لن أتمتع بالراحة نهاراً، ولن أخلد للنوم ليلاً
أمسيتُ كعينٍ كليلٍ أذرف الدموع مدراراً

****

لينطق المرء كلمة الحق، فإن صيف مرابعنا في كرميان لن يقارن بصيف هذه المنطقة... ففي تلك السهوب الجرداء تهب الرياح أحياناً ويتصاعد الغبار ويكون الطقس حاراً حتى أنهم تطرقوا إلى حرارته في أغانيهم، فقد خلق الرب تلك المنطقة على هذه الصورة، ولكن حرارتها ليست كحرارة هذه المنطقة الخانقة اللعينة، لا .. يا ويلي من حرارة هذه المنطقة.. بإلله عليكم أنطقوا كلمة حق وتذكروا الليالي في ديارنا .. ما أبرد تلك النسمات التي تهب من الشمال..ويكون لبن (الشجوة) وماء (القِرب) بارداً يكز الأسنان.. فكنتُ أتمنى في مواسم الحصاد أن أغفو وأتمتع بقيلولة عند موضع (قِربتنا)..! وماذا عن نسيم سحرها، والنوم على المصاطب في باحة المنازل.. يا ليتني لم أمت وأعرض صدري مرة لنسمات قريتنا الدافئة في ليلة من ليالي الصيف، عندها كنتُ أقول إن المنية حق ...

كان أحدهم في القاعة يتحدث هكذا بصوت عالٍ عن الحرّ دون أن يشير أحدٌ إلى ذلك.. وكان الحق يجانبه فقد كانت الحرارة لا تطاق، وكان لحرارة المنطقة وهبوب الرمال دورٌ كبيرٌ في موت هؤلاء الناس.. ولم يكن هناك من شيء يقضون به أوقاتهم، فكانوا يفترشون الأرض أثنين أثنين أو ثلاثة ثلاثة، ليحكوا همومهم المتراكمة لبعضهم البعض، ها قد زحف صابر أيضاً ليجلس جنب العم خدر وشرع يميط اللثام عن أسرار همومه:

ـ (عمي إن الروح في مكمنٍ عصي ولن تصعد بسهولة ..أدعو من الباري تعالى ألاّ يشاهد ويسمع أحدٌ ما أشاهده وأسمعه.. أتعرف إنني ومنذ فترة أعاني من الأرق.. عمي إن الأطفال لا يتحملون هذا الجوع وهذا الحرّ .. إنك لا تدري ماذا يكون شعوري حين أحمل جثة طفلٍ من حضن أمه .. لا تعرف .. أستغرب من نفسي .. كيف تحملتُ حتى الآن رؤية هذه الأحداث والمشاهد؟!... بدأتُ أرتاب من وعي وعقلي .. إنني لم أخبرك حتى

الآن، فالارتعاشة تنتابني ليلاً، أتململ في فراشي وأبكي أحياناً في سرّي.. عمي أحياناً اشاهدُ أشباحاً.. عزيزي كرميان .. أجلب لي قليلاً من الماء... عمي أردت أن أخبرك عن أمرٍ لا يسمعه كرميان .. فكثيراً ما رأيت سيقاناً وأيادي وزنوداً بين فكي تلك الكلاب ..!! إن الجثث التي ندفنها نهاراً تنهشها الكلاب ليلاً ... لماذا لم يُبيدوننا جميعاً هناك، لكي ننجو! وأتى كرميان بالماء، فدعا صابر العم خدر لتناوله، فرد عليه: (بالعافية). والأمر الأسوأ من غيره هو أن أحد الحرّاس أعتاد كل ليلة إخراج إحدى النساء من القاعة .. نعم.. بحجة كي يزودها بصمونة أو صمونتين إضافيتين .. نعم عمي .. فكيف لا أصاب بالأرق؟ .. ولم يُطق العم خدر صبراً فشرع يجهش بالبكاء كالطفل وأنسحب إلى مكانه مسنداً كتفه إلى الجدار ...

****

كان زحام الأيام الخوالي في القاعة يخف يوماً بعد يوم، وكان المرء يشعر أن النهاية أقتربت، ففي اليوم الأول لم يكن في وسع المرء أن يجد مكاناً يتمدد بسهولة، لكن بوسعك الآن أن تمد رجليك على هواك .. حتى أن العادات والتقاليد بدأت تتغير.. ليس لديهم رغبة في الكلام إلاّ إذا كان لأمر ضرورياً.. يقضون معظم أوقاتهم في صمتٍ وهدوء .. أو يستلقون على بطونهم، أو يحتضنون ركبهم بأيديهم وينكسون رؤوس المحن والهموم على ركبهم.. ورغم حالهم هذا كان (لفتة) يثير أحياناً ذكرياتهم المنسية بمقامٍ خورشيدي أو (يار غزال)، لكن للمدة التي كان يستغرقها المقام ومن ثم كانوا يعودون إلى وضعهم السابق ويغدون أجساداً خاملة ضجرة.

بدءاً أذكر أحاسيسكِ الطاهرة
والقلب بمنآكِ يتماوج في بحار الدماء
ناظراي تنتظرانكِ، لكن ماذا أستطيع أن أفعل
رؤية قامتكِ في الخيال لا تبرح ناظري
فالمشاتي العالية تدنو من السماء
والإقامة في كرميان تسلي القلوب

****

ـ (عمي).

ـ (نعم ...).

ـ (هل تتذكر ذلك الشاب ذو العينين الوقادتين والوجه العريض والشَعر القاتم؟....).

ـ (صابر .. دعني وشأني لقد نسيتُ حتى إسمي أيضاً.).

إن الشعور السائد في الفترة الأخيرة هو أن معظمهم كانوا يودون ألاّ تنكأ جراحهم وتتطرق إلى سير حياتهم وتذكرهم بما حدث لهم! فالحق يجانبهم .. إنهم وحدهم سكنة هذه القلعة هم مَن يدركون كم هو قاسٍ أن تعاني من العذاب والجوع وفراق الأهل، وكان التطرق إلى الماضي وتذكر أحداثه يزيد من همومهم ومعاناتهم، لهذا كلما جرى التطرق إلى أوضاع القرية وتلك الأيام هناك يتراءى لهم بصيص أمل وتتبرعم بوادر قوة خفية في أعماق عقولهم، لكنهم كانوا لا يودون التطرق إلى مثل تلك المواضيع، بل الأحرى إنهم كانوا لا يجرؤون على ذلك، فكانت تنكأ عليهم جراحهم وتزيد من همومهم.. في البدء ظن العم خدر إن صابر يريد أن يتحدث معه ويحكي عن ذكرياته مثل كل مرّة..

ـ (أصبر عمي إنني أقصد أمراً آخر .. أسألك عن الشاب الذي صعد معنا في السيارة في طوزخورماتو...؟ ...).

ـ (نعم .. نعم ..لماذا ... إني أعرف والده أيضاً ..).

ـ (أول أمس .. حين أرسلوا يطلبونني ..كان هو من توفي ..).

ـ (بإلله عليك ؟).

ـ (منذ أول أمس ووجداني يعذبني.. ألا تعرفُ لماذا..فلم أحكي لك عن هذا الموضوع..ففي داخل السيارة، حين كنتَ غير منتبهٍ، أومأ لي بإشارة من عينيه أن نهرب! فقد أنتابني الخوف ألاّ ننجح في مسعانا، وحين أدرك إنني أرفض ذلك رمقني بنظرة منه.. نظرة تنم عن العتب والتوبيخ .. لن تفارق ناظري نظرته تلك أبداً.. أول أمس حين رأيت جثمانه كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، فشعرت أنه يعاتبني ويوبخني ويريد أن يخبرني بتحملي مسؤولية موته.. وشعرت بأنني تسببتُ في موته .. فلم أستطع النظر إليه .. فأستدرتُ بوجهي.. ولم أجد شياً أغطي به جثمانه، كي أنجو من نظرته تلك، فنزعت مردتي لأغطيه بها.. نادمٌ أنا الآن..فلماذا لم أسمع كلامه.. أو على الأقل أن أعترض على

ذلك أو أن أدفعه إلى التراجع .. فمن ذا الذي يدعي أنه لم يكن ليحالفه النجاح؟ ...فأينما نظرتُ أجد نظرته لن تفارق ناظري...).

ـ (لا ذنب لك في ذلك وليس من الضروري أن يتعذب وجدانك جراء ذلك.. ومن ثم لأخبركَ فإننا جميعاً لن ننجو من هذا الوضع الذي نحن فيه .. أنظر إلى هذه القاعة التي كانت تكتظ بنا.. تلك هي أماكنهم ..بدءاً من الطرف الآخر.. مصطفى السمين .. خدر لك ..زينل ... مصطفى عبدالرحمن .. لطيف لا أعرف إبن من ...سيد نوري .. الرجل النوراني قرب الباب الذي لم ينفك يردد تكبيراته وتهليلاته حتى وافته المنية.. وذلك (شكر)نا! الذي لم يتناول شيئاً منذ يومين .. أدرك جيداً إن هذا المصير ينتظرنا، لكن لكلٍ موعده ... فلا مرد لإرادة الله...).

****

كانوا يضعون كل من يموت في القاعات جنب الجدار حتى يرتفع عددهم، ومن ثم كان صابر والملا محمود مثلما أعتادا على ذلك يخرجان لدفنهم عصراً.. ومنذ ثلاثة ايام أستمرا يدفنان الموتى صباحاً ومساءً، ففي هذه الأيام الثلاثة مات عدد كبير فلم يتمكنوا من دفنهم جميعاً، لهذا أستمرا في دفنهم صباحاً ومساءً.. وأضافوا عمل آخر إلى عملهم، حينما كانوا يحملون جثة لدفنها كانا يبحثان عن الأيادي والسيقان التي كانت الكلاب تأكل منها وتترك بقاياها على الرمال، فكانا يدفنانها ثانية تحت الرمال. كان صابر قد أعاد حكاية هذه الأحداث للقاعة مراتٍ عديدة. ففي إحدى المرات كان يحكي لهم عن هذه المواضيع:

(مدد حمه سيس ساقيه، رافعاً سرواله الأبيض وهو يقول: (لا أعتقد أن أي كلب سيطمح في ساقي هذه، حتى إنك إن حاولتَ أن تستخدم السكين فلن تحصل منها على أي شريحة من اللحم). وكان حال الجميع في الحقيقة كحال حمه سيس هذا جراء عدم تناولهم الطعام، ورغم أن هذه القصة والحكاية لم تكن سبباً يدفع المرء لأن يضحك، غير أن إبتسامة قصيرة أرتسمت على شفاههم .. لكن الأمر الذي جعلهم يصمتون ويذرفون الدموع مدراراً، كان في ذلك المساء الذي أخرج فيه صابر الخرزة الزرقاء والتعويذة من جيبه:

ـ (ما هذه؟) أردف بعضهم يسألون معاً.

ـ (لمن هذه؟).

ـ (من أعطاك إياها؟؟).

ـ (لماذا لا تتكلم، نوشك أن نفقد صوابنا ...!).

قسى عليهم صابر وأخبرهم عن الحقيقة .. ومن ثم ندم على ذلك ..لكن حين يخرج الكلام من الأفواه فلا راد له ..

ـ (لا أعرف من أي قاعة أتوا بذلك الجثمان الصغير، حين نزلتُ إلى الطابق السفلي كانوا قد وضعوه في العربة اليدوية، وكان عمره نحو خمسة إلى ستة أشهر.. رأيتُ هذه التعويذة والخرزة الزرقاء مشدودتين بخصلة من شعره ذو اللون التمري فوق جبينه، وفي ذلك المساء لم أنتظر الملا محمود فأخرجته لوحدي من العربة اليدوية وضممته إلى صدري كأحد فلذات كبدي.. وأجهشتُ بالبكاء على الرمال.. لم أكن أطيق صبراً، كانت الرمال لا تزال ساخنة فتطلعتُ حولي لأرى بعض الأكياس البلاستيكية معلقة بشجيرة، فأتيت بها وشددت بها رأسه.. ووارايته الثرى وقفلتُ راجعاً.. غيرأن الكلاب قد أخرجته وعثرتُ على هذه قرب السور مع بعض شعر رأسه وبعض العظام.. إن هذه التعويذة والخرزة الزرقاء هي من بقايا ذلك الطفل ذو الشعر التمري اللون..

****

كعادته في عصر كل يوم فقد نزل صابر إلى الطابق الأسفل ليدفن الجثامين التي كانوا يضعونها بالقرب من السور.. وقد وجد جثمان فتاة شقراء تبلغ من العمر نحو عشر إلى أثنتي عشرة عاماً.. تلبس في زندها سواراً زجاجياً وحيداً أحمر اللون.. وقد أصاب النحول زندها ...لم ينتظر أحداً لكي يدفنها معه فحملها ووضعها على ساعديه وخرج من الباب الصغير إلى الأرض الرملية.. رأى الملا محمود وأحد الحراس وقد أنتهوا من دفن أحد الموتى وهم في طريق العودة ... (لقد اقمنا هنا مقبرة كبيرة .. ولو كانت للقبور شواهد، ومرّ أحدهم صدفة في هذه الأنحاء لكان قد أردف قائلاً : (يمكن أن بلدة عامرة كبيرة ومزدحمة بالسكان موجودة هنا)..أنتابه حزنٌ مبهم.. وضع الجثة على الأرض جاثياً على ركبتيه وبدأ ينبش في الرمال ... كنتُ أعرف .. وكان قلبـي يخبرني بأننا سنلتقي .. من كان يتصور أن ألتقي بك هنا!...).

تناهى إلى مسمعه صوت رقيق كأنه يأتي من خلفِ جدارٍ .. توقف عن نبش الرمال... وتجمدت يداه في الرمال.. وبدأ يصغي .. لم يكن ليثق بأذنه..

(لكن ها إن الصوت قريبٌ ويقصدني بالذات).

(لقد ألتقينا ببعضنا، ولن يستطيع أحدٌ الآن أن ...).

(هذا الصوت .. هذا الصوت...) أنتابه الخوف.. وسرت قشعريرة باردة في جسده.. لم يكن ليثق بما يسمعه.. ها هو الصوت عينه:

(لم تكن جريرتي، كان أهلي يمنعوني ألاّ نلتقي ببعضنا.. بدورك لم تكن لتتحمل البقاء في قريتنا، حيث غادرت إلى قرية (قلا) .. ولم تكن لتعرج علينا إلى درجة لم تكن لتمر في تلك الأرجاء..ففقدتُ أملي ...لكنني كنتُ أعرف بأنني سألتقيك..).

أرتبك وقال بصوت عالٍ وكأنه يتحدث مع أحدهم (إنه صوت جنار .. حسناً وماذا تفعل جنار هنا ..) ولم يكن قد أخرج يديه من تحت الرمال بعدُ.. فشعر بإرتجاف جسده، رفع نظره بترددٍ وشكٍ وإرتيابٍ .. وأخذ يرنو إلى الجهة التي يصدر الصوت منها ... فشاهد شبحاً!! كان يقترب منه رويداً رويداً، قال في سرّه (ماذا تفعل جنار في هذه الصحاري ..) أقترب الشبح تماماً: (جنار هذه أنتِ؟ ... ماذا تفعلين في هذه الصحاري... من ذا الذي أتى بكِ إلى هذا الجحيم.. أحترسي كي لا يلمحونكِ ..).

(لا يلمحنا أحد..بإستطاعتكَ وحدكَ أن تلمحني.. فيما يتعلق بي لا تخف ..دعكَ من هذا.. عندما كنا في مرابعنا في تلك الليالي التي كانت طيور الزقزاق تنشر همومها في تلك السهول والأرجاء كنتُ أقول : (ها هو صابر يناديني .. وحين كنتُ ألمحُ مسافراً في النهار وهو يتجه نحو القرية لم أكن أغض الطرف عنه حتى يقترب وكنتُ أقول يمكن أنه صابر لكنكَ لم تكن لتأتي ابداً...).

(جنار هل تذكرين، حين كنا نزرع الخضار الصيفية عند ضفاف آوه سبي؟..).

(آوه سبي؟! أصبح كعيني وعيون النسوة اللائي يرافقوننا مجدباً.. ولن يَقدِمَ أحدٌ على زراعة الخضار الصيفية .. ولن تجد في تلك الأرجاء قرية.. وقد غدت مرتعاً للذئاب وبنات آوى..).

(جنار أتعرفين لماذا شرعوا يدمرون القرى بداية؟ ... فالقرى هي العمود الفقري للمدينة ..فالمدينة وسكان المدينة ليس في إستطاعتهم القيام بما تقوم به والقرى وقاطنيها ..).

(لكن هذه الحملة لم تجتاح بعضاً من قاطني القرى وكان الناس يخافون إيواءهم لفترة من الزمن ...).

(جنار أين أنتِ حتى آتي لزيارتكِ...؟).

(لاتستعجل .. ستأتي .. لقد نجونا نحن، إن عددنا كبير.. صابر لقد أرادوا (الأعتداء علينا)!...).

(يا لهم من أنذال ..).

(إلى من تشير؟ ... إلى هؤلاء الموجودين في ديارنا هناك أم إلى هؤلاء الموجودين هنا؟..).

(جنار جميعهم .. جميعهم .. حسناً جنار إلى أين أقتادوكن حين قاموا بفصلكن عن بعضكن البعض؟...).

(إنني أفهم لغتهم بعض الشيء.. كانوا يقولون بأنهم لن يدعوا هؤلاء النسوة أن يلدن بعد الآن.. كانوا يطعموننا شيئاً، وكنا بدورنا جائعاتٍ فنأكله.. وقد دفنوا أمي وشقيقتي فاطمة أحياء.. فتجهش أمي بالبكاء حين تحكي عن تلكم الحادثة.. لماذا فعلوا بنا هكذا؟!).

سمع وقع قدم كان يبتعد.. حين كان يقعد جنب جدار المسجد كان ينتظر قدوم جنار وهي تذهب لجلب الماء من الجدول .. حينما كانت تأتي مقبلةً كان يصغي إلى وقع قدميها.. وكان يسمع وقع أقدامها حين كانت تعود من الجدول حتى تنعطف في الزقاق.. صابر: أشعر بالبرد.. إن حكيت هذا لأي إمريء كان فإنه لن يثق بي بل سيعتبرني مجنوناً ..كيف حدث ذلك؟ .. كيف تحولت جنار .. تلك الفتاة الكرميانية الخجولة إلى ما هي عليه الآن ... في حينها لم تكن الظروف تسمح لنا أن نقف كل هذا الوقت لنتحدث مع بعضنا .. فأنتابه الإندهاش مرة أخرى ...

كانت يده قد تعرقت وكان الرمل ملتصقاً بها.. وتبدد الخوف والهلع الذي يشعر به قبل لحظات. ووضع جثة الفتاة الشقراء الصغيرة في الحفرة وأهال الرمال عليها بيديه، وشعر

أثناء عودته بأن القشعريرة لا تزال تسري في جسده وألتفتَ إلى الوراء عند الباب الصغير، فشاهد عن بعدٍ زاوية قلعة الجوار، وشاهد في باحة القلعة ذلك الحارس الذي أوصاه بتقصي أخبار والدة كرميان.. فأومأ بإشارة من عينيه إلى قاعة النساء، وقال (شم). ففهم صابر قصده، فوالدة كرميان موجودة في هذه القاعة، وأخبره بأنها نقلتْ إلى موقع آخر وأنهما سوف لا يلتقيان ببعضهما ..

حين عاد إلى قاعتهم، كان لفته يجلس على فراش صابر بناءً على طلب العم خدر وكان قد شرع يغني بهدوء مقام ألله ويسي، وكان العم خدر يتطلع من النافذة إلى الخارج، وكان مقام (ألله ويسي) قد أدخله إلى عالم آخر، وكان يبدو على الآخرين في هدوئهم وصمتهم كالعم خدر أن ذكرياتهم تنغرز في نفوسهم .. وكانت كلمات المقام كأنها سفود محمرّة تكوى بها نفوسهم.. وكانوا يحترقون في دواخلهم كحطب طري داخل مدفأة بيتية مما يستخدمونها في ديارهم وقد أغرورقت عيونهم بالدموع، وسيذرفونها عاجلاً أم آجلاً..

(أين لنواظرٍ تشع نوراً
ترنو إلى كرميان من دونكِ
فالمآتم تسود الموطن
والشحوب يخيم على المعابر
والهموم تملأ المكان
والمتنزهات يسودها الحزن
والأقرباء لم يثيروا الأسئلة
بإلله عليكِ دعيهم
فقد ماتوا من أجلكِ).

يبدو أن لفته كان قد شرع يغني منذ بعض الوقت، وكان يحترق مع الكلمات، لهذا كان قد أثر عليهم مختتماً مقامه بكلمة (ذويّ آه ذويّ)... إن تلك الخاتمة التي أختتم بها مقامه ذاك أثارتهم، وحدهم هؤلاء يدركون أي هراوة غليظةٍ هدت على رؤوسهم ..

ومع إنتهاء المقام أستدار العم خدر وتطلع إلى داخل القاعة.. فلمح صابر.

(إني أرى إن شكر وحمه غريب ليسا على ما يرام....!).

(حين تركتهما كانا بصحة جيدة ...!). قال هذا ودنا من كرميان واضعاً يده على كتفه وضمه إليه هامساً في أذنه: (إن والدتك موجودة هنا .. وهي في تلك القاعة .. وسوف ألتقيها في المرة القادمة حين أقوم بزيارتهن .. وسأخبرها: أن أجلسي أمام النافذة كي تشاهدي إبنكِ كرميان ...).

لم يتمالك كرميان نفسه، وبدأ يطوق رقبة صابر بذراعيه كطفلٍ يفتح ذراعيه لإحتضان والده من فرط السعادة حين يقدم له هديه،.. غير إن صابر كان غارقاً في لجة بحر تفكير آخر ... (لا أعرف هل أحكي له تلك الحادثة؟ هل يثق بي بأنني ألتقيت اليوم بجنار وتحدثنا معاً؟ ... من الأفضل أن أؤجل هذا الموضوع وأسكت ..).

تذكر عرس ذلك العام ..(أحاط بي شباب القرية ... وكنتُ قد أنتقلتُ حديثاً إلى تلك القرية ... وجرجروني غصباً عني إلى حلبة الدبكة ولسان حالهم يقول: قد يكون إبن المدينة لا يعرف كيف يدبك.. كان عدنان على يميني وويسي شقيق جنار على يساري.. حينها ما كنتُ أعرف إن ويسي هو شقيق جنار ولا أعرف لماذا خرج ويسي من حلقة الدبكة وحلت فتاة ممتلئة محله، فأمسكت يدٌ طريةٌ ناعمةٌ بيدي، وكان فخذها الناعم يلامس أحياناً فخذي، خطر ببالي أن أضغط على يدها على مهل .. فلم تحرّك ساكناً! ... فكررتها ثانية، فشعرتُ أن شليلة من الحرير تضغط على يدي على مهل، طننتُه في البدء نوعاً من النصح معتقداً أنها تريد مني التخلي عن هذه المداعبات .. وفي هذه اللحظة كفّ المطرب، الذي كان يطرب الحفل بأغنية جميلة، عن الغناء فجأة وجلس على الأرض فأنفرطت حلبة الدبكة، فقالت في هذه اللحظة بصوت ناعم: (لماذا يتمتع جل أبناء المدينة بالجرأة وعدم الخجل هكذا؟)، وأرتسمت إبتسامة ذات مغزى على شفتيها، فغدت هذه الواقعة بداية لعشق عذري .. وطلبتُ يدها وأصطدمتُ برفض والدها، لذا فقد رحلتُ عن تلك القرية وأستقررتُ في قرية (قلا)...).

(ماذا بك يا صابر لم لا تسأل عن أحوال شكر وحمه غريب؟!).

(عمي هنيئاً لمن يموت وينجو من هذه المعاناة!).

دنا من حمه غريب وجلس بجنبه وتطلع في عينيه.. ومسد يده بيده، كان جسده بارداً وقد أنتشرت بقع سوداء على وجهه.. تَذَكّرَ.. أن الذين توفوا في الآونة الأخيرة كانت تظهر على وجوهم بقع سوداء هكذا وتتغير ملامحهم..

(حمه غريب ... أنا صابر ...).

فتح عينيه بوهن:

ـ (ألم تأتِ لي بأخبار عن شوانه ووالدته ..).

أوشك صابر أن يقول له شيئاً يفرحه عند لحظات سكرات الموت هذه لكنه لم يجرؤ أن يكذب عليه... ولم يكن يرغب أن يخيب أمله نهائياً ويموت يائساً.

ـ (عهداً عليّ أن أستفسر لكَ غداً).

لم يتفوه بشيء، وأغمض عينيه ثانية.

نهض من ذلك المكان وبدأ يتفقد شكر هذه المرة .. كان شكر يرتجف كالشجوة..وقد أنتابته حمى فائقة الحرارة وكان يئن مع كل شهقة : (آهٍ... آهٍ... آهٍ ...) ولم يكن ليستطيع أن ينبس ببنت شفة، جلس لبعض الوقت قربه ثم قفل راجعاً إلى مكانه ...

يعاني صابر الليلة من التعب ليس جسدياً فحسب بل روحياً.. هناك طفل يبكي الليلة دون أن يكف عن البكاء.. وقتما كان يسمع بكاء طفل، كان يتذكر فوراً بكاء (شوانه).. مدد ساقيه، ولم يمضِ طويلَ وقتٍ حتى غالبه النوم ... سيغدو (شوانه) عند رأس الزقاق زهرة، وتنبت تلك الزهرة في كرميان فقط، وليس في كافة أرجاء الدنيا زهرة تماثلها في اللون والرائحة، ويأتي أحدهم ويدوس عليها ببسطاله، ويضحك .. ويرفع ساقه فتختفي الزهرة، ولكن رائحتها لن تنتشر في تلك الأنحاء .. إنها رائحة طيبة جداً.. أماه لماذا تفترشين الأرض هنا ؟! ..فلم تعد..لا تبكي يا أماه... يا بني لقد قاموا بتسجيل أسمائنا، إن الناس يدعون بأنهم سوف يقتادونكم أيضاً، يا ليتني يا بني أراكَ دوماً.. لا غرو في ذلك.. إن الكلاب بدأت تكشر عن أنيابها.. إن ذلك المكان يعج بالكلاب.. تمطر السماء كلاباً.. بدأت الكلاب تنهش جسده...

ويستفيق عند الفجر، فيرى في هذه القاعة وفي هذا الفجر شبحاً.. يفرك عينيه فيراه رويداً رويداً أكثر وضوحاً.. لقد تعرف عليه..(إنه الإبن اليافع .. إبن صاحبنا الخال شاسوار

كويخا نجم... هو أنت يا سيروان؟! كيف وصلتَ إلى هنا .. وأين والدكَ.. أين شقيقك قادر .. وشقيقتك فاطمة ...).

ـ (والدي موجود لوحده هنا... أما قادر ووالدتي وشقيقتي فاطمه فإنهم موجودون لدي ...).

ـ (أين هم ؟).

ـ (سيكونون في أي مكان يرغبون أن يكونوا فيه..بدوري ألتقيهم يومياً.. لقد حكتْ لي أمي وشقيقتي أنهما لم تعانيا من العذاب كثيراً ونجيا بسرعة!! ... صابر هل تشعر بدفء وروعة الرمال ليلاً.. هل تتذكر أتربة مضاربنا... أتتذكر الليالي، وخاصة الليالي المقمرة حين كنا نفترش الأرض في تلك الأرجاء عند حافات البيادر، وكنا نرسل أحدهم ليأتي لنا بالبطيخ والرقي من بساتين (آوه سبـي)...

ـ (لم تخبرني عن أخبار أمكَ .. أتعرف إنها خدمتني كثيراً ..).

ـ (نعم .. لقد أخبرتني شقيقتي فاطمة: لقد جمعونا في منطقة وكان عددنا كبيراً، ومن ثم أهالوا التراب علينا ببلدوزرات عملاقة، بدءاً ظننّا أنهم يمزحون معنا.. وحين أرتفعت الرمال إلى خناصرنا أدركنا أنهم ينوون شرّاً.. وأرتفعت الرمال إلى مستوى أنوفنا وأفواهنا فلم نستطع شهيقاً ولا زفيراً ولم تمض لحظات حتى فقدنا وعينا... لكن صابر إن ما شاهدناه أنا وشقيقي قادر أرجو الله ألاّ تراه بدورك...

ـ (حين فرّقونا، إلى أي مكان اقتادوكم؟).

ـ (لقد وصلنا إلى هنا قبلكم بيومٍ واحدٍ.. أستغفرالله بقينا نصف نهار، فأقتادونا جميعاً إلى هناك ومن ثم قاموا هناك .....).

ـ (من معكم من أهل القرية؟).

ـ (عمن تسأل؟!).

ـ (والآن أين أنتَ؟!).

ـ (أكون في أي مكان أريده..! لن يمرّ يوم دون أن أزور مرابعنا.. دعني لا اثقل عليك همومك وأحكي لك عن أخبار مضاربنا تلك ...).

ـ (إنني على وشك أن أجن فأقصص علي أخبار مضاربنا ومرابعنا تلك حتى تخف همومي بعض الشيء...).

ـ (لم يبق أي أثر لكافة القرى التي كانت تنتشر هناك .. وكأنها لم تكن عامرة في يوم من الأيام.. فقد كنتُ هناك البارحة ...! كان كلبنا الأغبر مستلقياً في موقع المضيفة فهرع يشم يدي وقدمي حين أبصرني، كان يقتات على الطحين وفتات الخبز المتيبسة المتناثرة تحت اللبن والجدران المنهارة، والأغرب أنه يتحين الفرص للإنقضاض على بعض الدجاج وفراخها التي تشتت في المنطقة ومن ثم إلتهامها.. لا يجوز لأي كان الاقتراب من قرانا تلك، وقد منعوا زراعة تلك الأراضي، يجب أن تبقى جرداء إلى أبد الآبدين.. صابر يقولون أنهم سيقتادون سكان المدن أيضاً إلى هذه المناطق بعد فترة قريبة، وقد بدأ بعضهم بالرحيل...
صابر لماذا تصرفوا معنا هكذا.. إنك تعرف إننا لم نحارب أحداً كنا نقوم بتربية الأغنام والمواشي وزراعة المحاصيل الزراعية ولم نكن لنؤذي حتى النمل... هل تتذكر كيف كانت مضيفتنا تلك تعج بالضيوف ليلاً ونهاراً دون أن تخلو منهم، غير أنني تناهى إلى مسمعي بأن والدي يوشك أن يموت جوعاً ...).

ـ (لـمْ تخبرني كيف...؟).

ـ (هل تود أن تعرف... حين نقلونا إلى تلك القلعة كنا جميعاً من الشباب ... كانوا يختارون منا في كل مرة ما بين 25 ـ 30 شخصاً، ويضعوننا في غرفة... كانت الغرفة أكبر من مضيفتنا مرتين.. كانوا يغلقون منافذها، ومن ثم مثلما كنا نفعل حين نذهب للصيد، هل تتذكر؟ ... حين كنا نضخ جحر الثعالب بالدخان، قاموا يضخون الغرفة بالدخان هكذا... كان دخاناً معطراً رمادي اللون .. حين كنا نتنفس كنا نستنشق ذلك الدخان، فلم يمض طويل وقتٍ حتى بدأت صدورنا تحترق وكأنك أشعلتَ فيه ناراً.. وكنا لا نستطيع أن نتنفس كأنهم وضعوا أثقالاً كبيرة على صدورنا.. فوضعنا رؤوسنا في أحضان بعضنا البعض من هول المعاناة، ولم يكن بإمكاننا أن نصرخ.. فكان الدخان يدخل إلى رئتينا بصورة أسرع إن صرخنا.. كانت الدماء تنزف وتتدفق من آذاننا وأنوفنا وأفواهنا، وبعد غمضة عين غلبنا النعاس، وهكذا كانوا يستخدمون هذه الطريقة مع عينة أخرى في كل مرة... هناك آخرون من سكنة هلبجة ممن أستخدموا ضدهم هذه الطريقة مثلما

أوضحتُ... إنهم صنعوا هذا الدخان لإبادتنا فقط ..لقد تأخرتُ ..علي أن أغادر.. وداعاً ...).

بدأ ضياء النهار ينتشر في القاعة رويداً رويداً.. كان صابر غارقاً في عرقٍ دبقٍ.. في وقت أستفاق العم خدر من نومه رافعاً رأسه مستنداً بثقله على أحد مرفقيه.. لمح صابر، وتنهد تنهيدة سريعة مادا يده ليلمس به جبين صابر.

ـ (صابر لماذا شحب لونك هكذا؟) ماسحاً عرق جبينه بكفه .. (كنتُ أنتظر أن تفيق لتستفسر لي عن أخبار حمه غريب وشكر..فبدأ صابر يسرد له تفاصيل الواقعة السابقة وواقعة ذلك الصباح.. لكن العم خدر إبتسم أخيراً إبتسامة فرحة .. وقال صابر في سرّه: (ليتني لم أسرد له تلك الحكاية ...).

****

كان حمه غريب وشكر ينازعان الموت أسبوعاً كاملاً دون أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة.. وكان أحدهم يجلس جنب حمه غريب حين أعلن نبأ موته على الملأ في القاعة عند منتصف الليل:

ـ (لقد إنتقل حمه غريب إلى رحمته تعالى ..).

ـ (يا خراب بيتي .. إنا لله وإنا إليه راجعون ...) هكذا عبر العم خدر عن حزنه .. فجلسوا حوله حتى شروق الشمس . وتذكر العم خدر شكر عند الغسق:

ـ (بإلله عليكم تفقدوا شكر وأعرفوا كيف حاله).

ـ (عمي، كان الوقت لا يزال مساءً حين حرك شفتيه مرة أو مرتين ولفظ أنفاسه الأخيرة..).

ـ (ولماذا لم تخبرنا ؟!).

ـ (وماذا أخبركم، وهل نستطيع فعل شيء).

لم يكن صابر مستعجلاً أبداً هكذا في دفن الموتى.. ففي هذه المرة بدا وكأن البراغيث بدأت تلعبُ في عبه لهذا شرع يستعجل..! منذ فترة وهو يفتقد جنار .. لا حس لها ولا خبر.. ومنذ ذلك اليوم بدأ يردد في سرّه: (إذا ألتقيتها هذه المرة سأستفسر منها عن أخبار أمي.. وأستفسر منها عن أخبار (ويسه) .. وأطلب منها أن تستفسر عن أسرتي .. يا ترى كيف هو حال أمي.. أتعتقد أن والدي سيغفر لي؟ فلم أصغ إلى نصائحه.. أعرف

الآن أن ما يكابده من هموم بسببي قد غدت ناراً تشتعل في صدره، إني أعرف والدي كم هو رقيق القلب وكم هو عاطفي ويكن لي حباً .. سأقول لها كل هذه.. لا أعرف لماذا لا نرى لها أثراً منذ فترة؟ هل يعقل أن هذه الشخصيات ستظهر مرة واحدة ومن ثم لا تجد لها أثراً تارة أخرى.. ألم أرَ سيروان عدة مرات؟ إن هؤلاء يشبهون الفراشات، سيعرجون على أي منطقة يرغبون التوجه إليها، لن يمنعهم أحدٌ.. كان سيروان يطمئنني كل مرة، لكنه أطلعني في المرة الأخيرة على خبرٍ مفجع، وكأنني لا هم لي، فزادني فوق همومي هماً آخر.. قصرتُ حين أستفسرت منه عن أخبار تلكم النسوة والأطفال ممن لم يجتاحهم ذلك الفيضان.. قصرتُ يا ليتني لم اتفوه بذلك السؤال..

ـ (أخبرك عن ماذا، يا ليتهم أقتادوهم بدورهم إلى هذه المنطقة ..!).

ـ (لماذا.. لماذا تتفوه بهذا الكلام؟! أليس الأفضل أنهم على قيد الحياة ...).

ـ (إن الموت أحياناً أفضل من البقاء على قيد الحياة ..! لقد بقوا دون منازل ومأوى ولن يأويهم أحدٌ.. أحياناً يلتفتُ إليهم بعض الخيرين، حتى أن بعضهم أدار أقاربهم ومعارفهم ظهورهم لهم، ومعظمهم يمارسون التسول، سيترعرع هؤلاء الأطفال ولن يكونوا أشخاصاً أسوياء، وقبل كل شيء لا يستطيعون أن يكنون الحب لأي شخص، وقد أنزلقت بعض النساء منهن ووقعن في أتون ... وتحول أطفالهن إلى باعة متجولين في الشوارع ليبيعوا السكائر والحاجيات الصغيرة وقد أعتادوا منذ الآن على مئات العادات السيئة .. وهناك القليل منهم ممن آواهم معارفهم وإن من عرفوا بأنه حادّ عن طريق الصواب فسيشنقونه. لا أريد أن أستطرد أكثر من هذا.. سأحكي لك عن هذا تارة أخرى بالتفصيل...

قلتُ له:

ـ (حسناً أليس هناك إنسان يهتم بكم، يمكن أنهم يتذكرونكم على موائد الشراب ... أم إنهم يتجارون بمأساتنا هذه؟ ...).

****

كانت هناك، إضافة إلى جثتي شكر وحمه غريب ثلاث جثث أخرى موضوعة جوار السور.. كانت لصابر علاقة خاصة تربطه بحمه غريب..أعاده الخيال عند الجدار إلى فترة ما بعد ظهيرة يوم حدوث المأساة.. (.. كان فمه مطموساً في التراب، عندما حملته كان التراب قد

تلطخ بالدماء عند موضع سقوط رأسه.. كنتُ أتردد على بيتهم لغرض شراء الحاجيات، ولم يكن ليستطيع تلفظ إسمي بصورة صحيحة، كان يناديني بإسم (سبيل).. وحينما كان يذهب ليخبر والديه بقدومي، كان يقول لقد قدم (سبيل)، عندها كانوا يدركون إنني القادم.. حمه غريب كنتَ لا تمكثُ في المنزل شتاءً وصيفاً، سواء إذا كان البرد قارساً والمطر يهطل مدراراً .. أو صيفاً قائظاً.. كنتَ تتجول في القرى.. وكنتَ تمكث في العام يومين في البيت.. يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى.. ومن ثم فقد كنتَ تحلُ في بيتك كأنكَ ضيفٌ تنزل فيه، كنتَ تضع خرجاً على حمارك وتتجول في القرى وكنتَ تقضي الليالي إلى وقت متأخر أما في المضيفة أو في الساحة القريبة من شجرة التوت وكانوا يلتفون حولك لتحكي لهم عن أخبار ومجريات تلك القرى.. وكانوا يوصونك للإستفسار عن أخبار أحد أقربائهم أو معارفهم ممن أنقطعت أخبارهم، وكنتَ تطمئنهم في الغد عند عودتكَ، وكنتَ توصلُ الهدايا والأمانات إلى أهلها إن وجدتْ ... حمه غريب أصفح عني وأغفر لي كوني أخفيتُ عنكَ خبر شوانه ولم أخبركَ به.. ما كنتُ أرغب أن تتعذب روحكَ، لأنك لم تكن لتتحمل وقع همٍّ كهذا.. وماذا كنتُ أستطيع قوله.. فقلتُ في نفسي ليبقى هذا البصيص من الأمل لديه.. إن العديد من هؤلاء الموجودين هنا يطمئنون أنفسهم ويتصورون كأن ذويهم وأهاليهم ومعارفهم في أماكنهم ! وإن لم يدعوا ذلك فإنهم يعتقدون أنهم على قيد الحياة وأنهم أحياء يرزقون... يا حمه غريب .. إنك لم تؤذي حتى نملة! ولن أعتقد بأنك آذيتَ طفلاً.. وكنتَ تبيع لهم الحاجيات بالدين .. وكانوا يشترون منك السكر والشاي والبافرا والبصل الأخضر والصابون ديناً.. وكنتَ تدون ذلك في دفترك وتنتظر لحين حلول فصل المحاصيل والبيدر.. عندما كنتَ تلتقي عجوزاً أو طفلاً أو إمرأة في تلك السهول والهضاب والطرق فكنتَ تترجل عن دابتكَ ليمتطوها عوضاً عنك.. فمنذ ذلك المساء الذي فسحت لي مكاناً في الغرفة لم أشاهدكَ تضحكُ مرة أو تبادر إلى الحديث!! .. فيمَ كنتَ تفكر طوال هذه المدة الطويلة؟ ماذا كنتَ تقولُ في سرّكَ؟ لتغدو جريرة صمتك طوقاً في عنق هؤلاء من هم هنا وهناك...! كان صابر جنب الجثة يحدث نفسه هكذا.. بدأ ينتحب، فلو لم يكن لينهض لكان قد أجهش بالبكاء.. كان الآخرون قد أخذوا الجثث الأخرى منذ فترة، ولم يمضِ طويل وقتٍ حتى عادوا فحملوا الجثة ووضعوها على العربة اليدوية فأخذها لوحده.. حين

أجتاز الباب لمح الكلاب التي كانت تتشمّم متجهة نحو الموقع الذي دفنوا فيه الجثث قبل لحظات من الآن ,, فأوقف العربة اليدوية .. وبدأ يلتفت يمنة ويسرة حتى وجد بعض الأحجار عند شُجيرة فقذف بها الكلاب حتى أبتعدوا عن المكان..كان يحفر بيده في الرمال فإنتفض على صوتٍ رقيقٍ، صوتُ ضحكةٍ طفوليةٍ رقيقةٍ ... (ماذا تفعل! ...). ولم يستطع التعبير من هول الإندهاش ... (كيف يجوز هذا ... إنك فعلتَ الشيء عينه بالنسبة لي .. فأخرجتني الكلاب منها بسهولة، وعذبتني كثيراً.. ومنذئذٍ أبحثُ عن والدي.. فعثرتُ عليه.. إنه لا يداعبني كما مضى...! تَجَهَّمَ .. يقول إنه لن يفكر في أحد حسرة على والدتي .. يقول لي هذا .. ففي اليوم الذي بدأت مأساتنا هذه، كنتُ وشقيقتي شلير نلعب عند أطراف القرية.. كنا نرعى الخراف، وكنتُ قد صنعتُ لنفسي دمية من القش وقطع القماش.. فتركتها ورائي حين قدم الجنود.. إنني أعود إلى هناك وأبحث عنها كل يوم ولن أعثر عليها.. أقول لماذا فعلوا بقريتنا هكذا؟! من بيتنا .. أقول أستطيع من خرابة بيتنا الذهاب مباشرة إلى بيت شلير.. فيما مضى كنتُ أنعطف من زقاق أو زقاقين، وكنتُ إصل إلى موقع المزبلة الكبيرة ومن هناك كنتُ أركض لأصل إلى بيت (حمه نكبت)، وكنتُ أنعطف عندها كان يظهر بيت شلير!! من أي قرية أنتَ؟! (ألا تعرف بأنني من سكنة قرية (توكن)...هناك العديد من الدمى والعربات المصنوعة من الأسلاك والكرات وأشياء أخرى ...إنها كثيرة، وقد وقعت بعضها تحت اللبنات المنهارة.. رأيت دمية تحت لبنة فلم أأتِ بها لأنها لم تكن دميتي..

ـ (أيها العاقل أين أمكَ؟).

ـ (أنتظرها .. ستأتي لوحدها! .. لا أعرف كيف أعثر على دميتي؟!).

(لو كان نصيبنا في حينها أن نتزوج فقد كنا لنُرزقُ بطفلٍ لطيف المعشر كهذه الطفلة..).

وفجأة قطع صوت رقيق ولكن أجش قليلاً حديثه وكان أبعد من صوت الطفلة .. ولكن كان وقع أقدام صاحبته يقترب أكثر ..

ـ (جنار ّ..!).

ـ (منذ فترة ليست قصيرة وأنا أسترق السمع إليكم وأراقبكم، ما احلى كلمات تلك الطفلة.. أتعرف صابر حين أقتادوا أمي وشقيقتي فاطمة، كانت ترافقهن عشرة إلى اثنتي

عشرة طفلة.. حين تروي أمي تلك الواقعة لا تستطيع تحمل وقعها فتجهش بالبكاء.. وكان برفقة إحدى الأمهات طفلتين وفي تلك الأثناء حينما أهالت الشفلات الرمال علينا غطت الأم عين إحداهما بيديها كي لا تدخل الرمال في عينيها!

تروي أمي إنها رجتني في تلك اللحظة أن أهتم بالثانية..

ـ (كفى لا تعيدي هذه الحكايات.. إنني لن أستطيع تحمل عبء كل هذه الهموم والمعاناة.. حين تعودين هذه المرة أستفسري لي عن أفراد عائلتي .. أستفسري عن صحة أمي .. وماذا يفعل والدي؟...).

تناهت إلى مسمعه في هذه الأثناء أصوات نباح كلابٍ فألتفت إلى الوراء.. وفي الوقت عينه سمع صوت وقع أقدام تبتعد رويداً رويداً، كان صوت وقع الأقدام عينه حين كان يقعد جنب الجدار وتمرّ جنار من هناك فيسمع ذلك الإيقاع الموسيقي.

ـ (وكيف حال القرية؟).

ـ (القرية بقاطنيها تعتبر قرية)، بالكاد سمع هذه الكلمات. كان قد اهال رمالاً كثيرة على الجثة، خوفاً من الكلاب لئلا يخرجوها من الحفرة جامعاً أحجاراً متناثرة هناك ووضعها على الرمال مهيلاً عليها رمالاً أخرى.. ووقف على قدميه وهو يمسح الأتربة والرمال على ملابسه... (ألله يساعدك)، وكان هناك بالقرب منه رجل عجوز يتكيء على الرمال، يبدو عليه أن التعب قد أنهكه.

ـ (ليساعدك الله بدورك...).

ـ (أنا لن أتعب ...).

ـ (لم ألحظكَ فمنذ متى وانت جالس هنا؟).

ـ (لقد وصلتُ لتوي! كنتُ في مرابضنا .. أنهكني التعب، لكنني لستُ من تعبَ في الطريق، هناك أمر آخر أتعبني...).

قال صابر في سرّه: (لا أعرفهُ ولم ألتقِ به... لا أتذكر بأنني دفنتُ عجوزاً كهذا! يمكن أنه توفي في قلعة أخرى..) ورغم أن صابر قال هذا الكلام في سرّه، لكن العجوز قال:

ـ (إنك محقٌ .. لقد كنتُ في مكان آخر ..).

ـ (قلتَ إنكَ كنتَ عند مرابضنا؟!).

ـ (نعم عند مرابضنا.. أقول أن لا أعود من شدة غضبي عليهم..إن سكان المرابض المجاورة لمرابضنا قد أطلقوا علينا إسماً عجيباً! يطلقون علينا إسم الأنفال .. ما هي الأنفال؟).

ـ (الأنفال سورة من سور القرآن الكريم).

ـ (لماذا فهل القرآن قال أن يرتكبوا هذه المأساة بحقنا؟).

ـ (كلا، إن القرآن لن يقبلَ بهذا!).

ـ (إذا لم يكن يقبل بهذا فلماذا لا يقضي عليهم جميعاً؟!).

ـ (سيقضي عليهم ...).

ـ (متى؟).

ـ (أصبر...).

ـ (أللّه يخرب بيتك كما خربه. لا زلتَ تقول لي أصبر..).

قال الرجل العجوز هذا غاضباً ولم يقل له وداعاً ونهض تاركاً المكان.

****

حين عاد صابر إلى القاعة، كان لفته قد رفع عقيرته .. وكان يغني أغنية (يارغزال) على مهله..

ـ (لا أعرف ما هو سبب هذه السعادة التي يتمتع بها لفته الذي لن يكف عن الغناء وها هو الآن يغني أغنية يارغزال؟).

كان هناك أحدهم من منطقة جافايتي لا يُعرَفْ كيف وصل وكيف دخل إلى هذه القاعة وكيف تشرد عن القرى الواقعة في مضاربهم ليقتادوه مع هؤلاء.. كونهم أقتادوا سكان تلك المناطق إلى منطقة أخرى ...حين يقول الآن هذا الكلام .. فقد كان يرفع عقيرته عندما أقتادوه إلى هذه القاعة ويغني (الهورة) دون أن يسكت! حتى كفّ في الفترة الأخيرة، ليقعد صامتاً هادئاً، ولم يكن ليبعد يده عن شاربه، فكان يلامسه بيده ويفتله منذ الصباح إلى المساء بإستمرار.. وكان يسرد لنا عدة مرات حكايات وقعت في مرابعهم، كان يجب أن يتطرق إلى شاربه.. وكان يقول: كنتُ أزيته كل صباح بزيت اللوز.. وكنتُ أزيته

بزيت الخروع إن لم أحصل على زيت اللوز.. كان ينسجم مع لفته .. وكان لا يقبل أن يعانده أحدٌ عدا لفته..

ـ (خالي وهل أن الأغاني تغنى في أوقات السعادة والمناسبات والأفراح فقط؟ فالغناء ينسجم مع الأتراح والأحزان، وإذا ما كانت الأغاني تغنى في وقات الفرح فقط، فلم تكن لتجد للطرب في كرميان من أثرٍ، وذلك لندرة مناسبات الأفراح لدينا.. لهذا تجد أن لأغاني كرميان تأثيرها الفائق على الإنسان كونها وليدة الحزن والمعاناة).

هكذا رد عليه لفته، وكان الرجل بدوره يمسد شاربه بيده...

****

منذ فترة وقد أنخفضت درجة حرارة الشهور المنصرمة بعض الشيء.. ولم يكن الحرّ حرّاً في حد ذاته بل كان تنوراً مشتعلاً.. إن ما فعله هذا الحرّ الملعون بهؤلاء الناس يضاهي ما تعرضوا له من جوع وإنقطاع عن الأهل، وكان له اليد الطولى في موتهم.. الحرّ موجود، ولكن ليس حرّاً مثل حرّ هذه الديار.. حين ترتفع الشمس شبراً من الأرض تشرع في إرسال نيرانها فتغدو الرمال مزابل مشتعلة، فتتحول الأحجار والحصى والصخور إلى جمرات متقدة، ومن هول الحرّ لم يكن المرء يشتهي طعاماً، ففي الوقت الذي لم يكن في إستطاعتهم مقارعة الحرّ، كانوا يعمدون إلى خلق دنيا أخرى خاصة بهم.. عندها كانوا يشرعون في سرد تمنياتهم:

ـ (إن لم تكن الآن في ضفاف روخانة وتصب الماء مدراراً على رأسك ...).

ـ (كيف يكون الحرّ بهذه الدرجة؟).

ـ (حين كان الحرّ يشتد كنا نحضرُ قدراً من الماء وكنا نرش به تلك الأنحاء.. وحينما كانت ريح الشمال تهب عليها كان المرء يود أن يستلقي ...). كانوا يتصدون هكذا للحرّ.. وكانوا يريدون هكذا أن ينسوه...!

منذ فترة والخريف شرع يكشف عن علامات حلوله، فأوراق شجرة التوت الواقعة في الطرف الآخر من القلعة بدأت تتساقط واحدة إثر أخرى وتبدو الشمس أكثر عطفاً ولن تمكث طويلاً وتغرب أبكر من السابق.. فإن أي تغيير في هذه الديار، مهما كان صغيراً، حين تهب العواصف الرملية، أو يشتد الحرّ، أو يكون الليل مقمراً، وأي أمرٍ آخر من هذا القبيل،

كان يثير ذكريات وفكر وخيال هؤلاء الناس القاطنين في القلعة .. عندها كانوا أما يتقابلان أثنان أثنان ليتسامرا مع بعضهما ويسردان ما يخطر ببالهما، وإذا لم يجد أحدهم إمرءاً فكان يُحدِّثُ نفسه أو ينزوي في زاوية ويبدأ يوتوت ويدمدم... وحين كنتَ تشاهدهم كنتَ ترتاب من عقولهم ووعيهم وتتساءل هل جنّ هؤلاء؟.. لقد أعتاد الجميع على هذه السجية، وكانوا ينسون أنفسهم للحظات، وكان بينهم من كان يقعد صامتاً حزيناً أينما كان، محدقاً في اللامكان، باقياً على حاله.. رغم أن الجوع والضجر قد كسرَ أجنحة تفكيرهم.. لم يكونوا ليستطيعوا التحليق بها عالياً، لكن ورغم ذلك فقد كانوا يتنفسون بواسطته الصعداء ليعودوا بسرعة إلى الحياة الواقعية داخل القلعة، لكن أكثر حزناً وقنوطاً من السابق، نادمين ألف مرة من التهويل والمبالغة التي يرتكبونها وما يخطر ببالهم من أفكار وتصورات خيالية، كانوا يتمنون ألاّ يتذكروا شيئاً، لأنهم حينما كانوا يتذكرون ذكرياتهم في تلك الفترة القصيرة لا تنفك تزداد همومهم.. لذا فقد أصبحوا في حال يرتعبون من التذكر والذكريات، لإدراكهم بأن مغامرتهم هذه ستعذبهم لاحقاً، عدا لفته الذي كان يعبر عن ذكرياته بالغناء.. شرع يستقبل الخريف وهو يغني على مهل أغنية يارغزال:

قدم الخريف فشـحبت طلعتكِ

ولقد شحبتُ بمنآى عن الحبيب

ـ (لقد ودعنا الصيف، وقدم الخريف، ليس هناك بصيصُ أملٍ يُذكر ... حتى إن عادات وتقاليد الناس قد تغيرت تماماً..يسيرون غادين رائحين كماكنة لا روح فيها... ويتحركون ببطءٍ ..ولن يتحدثوا الآن عن القرية وعن ديارهم.. ولا يفكرون في مصير ذويهم ومعارفهم المغيَّبين!! .. فيما مضى حين كنتَ تجالسُ أحدهم كان يتحدث عن لم الشّمل والعودة، لكنك لن تسمع ذلك الآن من فم أي كان! ... لقد فقدوا الأمل؟! .. لقد فرغت القاعات إلى حدٍ بعيدٍ... هناكَ بعضٌ ممن إذا قعدوا في مكانهم فلا يبرحونه حتى المساء!!.. أضجراً، أم جراء فقدان قدرة التحرك، حتى أن البعض منهم لا يستطيع تفتيت الصمون اليابس الذي يتم توزيعه عليهم... وإذا ما أرادوا الذهاب إلى زاوية أخرى فيستندون على الجدار ..لن يسألوا عن أحوال بعضهم بعضاً، كأنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً، ينظرون ومن ثم يجتازون

بعضهم بعضاً ليواصلوا سيرهم، فإذا صادف ولم يتم توزيع ذلك الصمون اليابس عليهم ليومين متتاليين فلن يتلهفوا من أجله وليس هدفهم.. ففي هذه الأيام توفي العم خدر، لكن من حسن حظه لم يصب بما أصيب به هؤلاء..وكان لا يزال بصحة لا بأس بها.. إنه لأمر غريب فقد نهض على قدميه صباح أحد الأيام أمام النافذه متنحنحاً مستنداً بيديه على الجدار.. وهو ينظر إلى المدى البعيد.. حين دنوتُ منه وجدتُ الدموع تنهمر على لحيته البيضاء .. فأمسكتُ بساعده كي أجلسه على فراشه، فأردف يقول بصوت مرتجف ـ حين سمعتُ صوته فأقشعر جسدي وأدركتُ بأنه ليس على ما يرام...

ـ (كنتُ حتى هذا اليوم أنتظر خبراً .. لكن.. لم أسمع خبراً ولا إستفساراً.. صابر لم يكن هناك من خبر.. فلن يصل صوتُ أحدهم إلينا ولا يصل صوتنا إليهم، أرجوك أن تهتم بـ(كرميان)، وأستطرد يتحدث مع نفسه بصوت خفيض يخرج بالكاد من بين شفتيه:

لقد سقطت دثاري جانباً

ولم تتناهى إلى مسمعي أنباء أحبتي

فكرتُ كثيراً في البعاد

وقيظ الصيف أحرق حقول حياتي

يا نور ناظري أدعو لكِ بالسلامة

لقد تأجل لقاءنا إلى يوم يبعثون

مددته على فراشه فأرتجفت شفتاه مرة أو مرتين، وبقيت إبتسامة مهمومة أبدية على شفتيه..)..بدوري أشعر بأنني أفقد قدرتي وقوتي يوماً بعد يوم.. وقد إزداد صمت وهدوء صابر في الآونة الأخيرة، فمنذ الصباح حتى المساء يتردد في باحة القلعة بين هذه الظلال وتلك..ويحتضن ركبتيه ويرنو بعيون جاحظة إلى اللامكان...يستغرب من نفسه... إنه لا يزال على مايرام، كل هذا الجوع وكل هذه المشاهد المخيفة.. دفن كل أولئك الأطفال والنساء والعجزة، وهو لا يزال حياً يرزق.. لا زال يتذكر الكثير من الأمور.. لكنه لا يتذكر الأمور الدقيقة كالسابق.. يتذكر من الأمور جليها ..كان طفلاً ينتمي إلى أسرةٍ فقيرة، نزحوا إلى طوز خورماتو... أصدقاؤه في المدينة .. الذين يتذكر أسماءهم .. حمه، كامران، دلير، مع عدد آخر من الأشخاص .. كان يتساءل: يا ترى أين هم الآن؟ لم أصغَ

إلى نصائحهم... لنذهب، أستهزأت بكلامهم، لقد أرتدوا أحذية الغربة وغادروا.. أمّا أنا ورغم إني لم أكن انتمي إلى أي طرف كان فقد ضيقوا عليّ الخناق في المدينة فأصطررتُ إلى الخروج والتوجه إلى تلك السهول.. ومن ثم هذه المأساة .. تراني أفقد قوتي ومقدرتي يوماً بعد يوم، فإن سرتُ عشر خطوات عليّ أن أستريح فترة من الزمن كالعجزة.. لقد تسببت الرمال والحرّ في إصابتي بضيق التنفس .. لستُ أفضل من هؤلاء ... سأموتُ دون صاحبٍ وتنهش الكلاب جثتي .. عليّ أن أفعل شيئاً.. فتناهت في هذه اللحظة ضحكة مستهزئة إلى مسامعه، رفع ناظريه: ها هو .. الشاب يرنو إليه.. لقد ظهر بصورة أكثر وضوحاً.. وهو يقف قبالته بإبتسامه مهمومة مليئة بالشكوى والاستهزاء.. دون أن ينبس ببنت شفة! إن صمته يعذبني أكثر من إبتسامته .. (الآن شرعتَ تصدق كلامي؟ وما الفائدة؟ ...كان هناك بصيصُ أملٍ وقتها، بصيصُ أملٍ، لكنكَ لم تكن لترى هذا الجحيم لو كنتَ أصغيتَ إلى كلامي.. إن جريرتي تقع على عاتقك...).

ـ (كنتُ أتوجس خيفةً ألاّ تنجح المحاولة...)..بدأ يتمتم، وحالت الدموع بينه وبين أن يكمل كلامه.. وكأنه يداريه بعطفه حيث غيّر الشاب أسلوب حديثه.

ـ (مهما كان فإنك من المحظوظين، أكثر من قاطني القلعة المجاورة .. فقد تناهى إلى مسمعي: أنهم قاموا بخنق بعضهم بالدخان وزرقوا بعضهم بجراثيم بعض الأمراض فأصيبوا بأمراض فتاكة وماتوا... وأصيب البعض منهم بصداع شديد بدأوا على إثره ينسون كل شيء، حتى إنهم نسوا أسماء ذويهم ومعارفهم، وكان البعض منهم يحكّون جلود ظهورهم.. يقعدون صامتين مهمومين، فلم يبق الآن أحد يذكر في تلك القلعة، ولن يقترب أحدٌ منها، لئلا يصابوا بتلك الأمراض.. يمكن أنهم سيقتادونك إلى هناك ليجربوا عليك بعض الأمراض . فأرحل ما دمتَ لا تزال تتمتع بشيء من القوة ـ أنا لست مثلكَ ـ فمهما أستعجلتَ سيكون الوقت قد فاتكَ.. لكن عليك ألاّ تنسى إن هذه المنطقة عبارة عن رمال وليست لعبة، ليست كهضاب وسهول ديارنا.. فأرحل .. فإذا بقيتَ حياً فستصلَ إلى مكانٍ ما، فإذا ما وصلت إلى المكان المقصود .. فأحكي كل ما شاهدته ..حسناً؟ ... وإن متَّ فلن تنهش الكلاب جثتكَ، أن تأكلكَ النسور والطيور والحيوانات أفضل من أن تنهشك الكلاب...). قال هذا وأختفى من أمام ناظريه.. سأذهب وأحمل معي بعض

الماء وبعض الصمون.. سأذهب .. حدق في أرجاء الباحة... كان هناك بعض الناس يمشون جيئة وذهاباً بخطوات وكأنهم أطفال صغار بدأوا يتعلمون السير تواً.. كانوا يمشون في الباحة جيئة وذهاباً صامتين ...

****

أنتشرت منذ يومين بعض الشائعات، هذه هي المرة الأولى التي يُسمع فيها أمرٌ من هذا القبيل.. ورغم ذهول وإندهاش الموجودين في القلعة فقد أصاخ بعضهم السمع للنبأ، ولا يدرك أحدٌ أن هذا الخبر الغريب والعجيب هو:

ـ (سيتم إطلاق سراح بعض العجزة والأطفال ...!!).

حتى أن الذين فقدوا كل أمل ولم يكونوا لينتظروا شيئاً، فقد تبرعم شيء ما في نفوسهم.. فبدأوا يفكرون تارة أخرى بمنازلهم وأسرهم وهضاب وسهول ومرتفعات ديارهم، هؤلاء كانوا يعتبرون أنفسهم ممن سيُطلقُ سراحهم.. لم يكن نبأً بسيطاً.. أتعرف ماذا يعني؟ العودة، فنبه هذا النبأ عقولهم.. من لن يدّعي أن ذويّه قد أطلق سراحهم الآن؟ يمكن أنهم عادوا إلى أماكن سكناهم منذ فترة.. لا علم لي أنا.. حين أصل إلى البيت، سأجدهم هناك، وسنسعد بلقاء بعضنا بعضاً، ونستأنف أعمالنا تارة أخرى، إن الأرض بمثابة أُمٍّ، أنّى توجهتَ إليها لن تلفظكَ، فإذا كان الباري قد خلق المرء فإنه سيرزقه أيضاً، فإذا ما تسبب جاهل في هدم كوخ أو جدار لنا، فهناك الكثير من الأحراش والقصب، أما التراب والأحجار فحدث ولا حرج.. فسنعمرها.. كانوا في النهار يمنون أنفسهم بالعودة إلى ديارهم ألف مرة ومرة.. وكانوا يحلمون أثناء الليالي وينتفضون من نومهم في منتصف الليل ويستشهدون بالله .. ويسردون أحلامهم لبعضهم البعض..

ـ (خير..إن شاء الله ..خير..فهو كذلك .. ستعود ...).

ولم يكونوا لينسوا في الليلة عينها أن يوصوا الحالمَ المحظوظ وصاياهم ويحملونه تحياتهم وسلامهم لذويهم..

ـ (أسلم على فلان وعلان ... أقبل وجنتيه.. أخبره إذا ألتقى أسرتي فليهتم بأمرهم... فلان مديون لي ببعض المال ليسترده منه ويصرفها لعائلتي .. حتى أعود...!!).

ـ (إنه قرار وقد أتخذته، إنني سأرحل ولن أعود.. وماذا عن كرميان؟ يهمني أمره.. نعم .. لقد وجدته ..! سألتقي أحد الحراس ليلاً..).

رآه في الباحة .. أمسك بيده وأنزويا جانباً..

ـ (إنني أحتاج إلى مساعدتك في أمر ما ....).

أخبره وناوله رزمة من الأوراق المالية. كان صابر، إذا ما مات أحدهم وكان يحمل أموالاً، يحتفظ بها لديه، ففرح الحارس:

ـ (قل لي ماذا تريد).

ـ (لقد تناهى إلى مسامعنا بأنهم سيطلقون سراح بعض العجزة والأطفال..).

ـ (نعم، صحيح، من قال لكم؟).

ـ (حاول أن ترسل كرميان برفقة إمرأة ورجل مسنين).

ـ (ببطن عيني ..).

وفي عصر أحد الأيام وبعد مضي فترة أسبوعين من ذلك تأكد النبأ.. فأقتادوا حوالي خمسين إمرأة ورجل عجوز من القاعات إلى عتبة الباب الصغير يرافقهم نحو عشرة أطفال، وكان كرميان من بين هؤلاء الأطفال برفقة إمرأة..

قالوا لهم: (سنعيدكم غداً بالسيارات إلى دياركم).

دنى صابر من كرميان.. وأحتضنه، وقبّلَ وجنتيه وبدأ ينتحب .. (أخ صابر سيطلق سراحكَ أيضاً.. سأزورك.. أتتذكر حين أخبرتني بأنك ستزور قريتنا، لا تنس سأنتظرك ...).

ـ (سآتي كرميان .. سآتي ...).

أخبرهم الحارس:

ـ (على الذين ذكرنا اسمائهم عدم العودة إلى قاعاتهم، ليبقوا هنا ليلاً حتى نبدأ الرحيل غداً باكراً...).

****

كانت ليلة مقمرة، وقد بدأت تهبُ ريحٌ باردة بعض الشيء فأقترب أحد الحراس من صابر وأخبره عن موت أحد المعتقلين... (إنها فرصتي سأرحل هذه الليلة .. سأدفن تلك الجثة

هذه الليلة ومن هناك سأبدأ الرحيل بعون الله... لأحمل معي بعض الماء وبعض الصمون.. فأعد ما كان يحتاجه. أقترب من كرميان مرة أخرى وأحتضنه ثانية وقبّل وجنتيه (هذه هي الجثة الأخيرة التي سأدفنها، لأبطيء بعض الشيء.. ها أنهم خرجوا من الباب.. سأذهب في إتجاه مستقيم حتى أبتعد عن القلعة بعد ذلك سأتجه يميناً، لا أعرف كم يستغرق ذلك سيراً على الأقدام، لكنني أعرف إن لم أضل الطريق أو إذا ما لم أصادف مكروهاً فإنني سأصل إلى مدينة صغيرة في هذا الإتجاه، فسأدخل المدينة وبعد ذلك سأنتقل بالأقدام من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية حتى أصل إلى ديارنا .. أسمع نباح الكلاب .. لقد غرب القمر أيضاً.. وتحولت السماء إلى قطعة من النجوم .. يجب ألاّ يضيع علي هذا الإتجاه الذي أتوقع أن ينتهي إلى منطقة عامرة...

أسمعُ صوتاً! وهو يناديني فأتعرف عليه من بين مئات الأصوات. إنه صوت جنار! ... هناك صوت آخر في المقدمة يناديني ...أو ...لا لن أعود إلى تلك القلعة.. أماه أنا قادم .. أنا قادم .. لا زلت في الطريق، من الأفضل أن أموت في حضنكِ لا أن أموت في هذه القلعة اللعينة جوعاً وإشتياقاً، ومن ثم أغدو طعاماً لتلك الكلاب .. سآتي ..

1989 ـ 1992 طوزخورماتو

أنتهت الترجمة يوم 2013/1/14

نبـذة عـن الـمـترجم
مكرم رشيد الطالبـاني

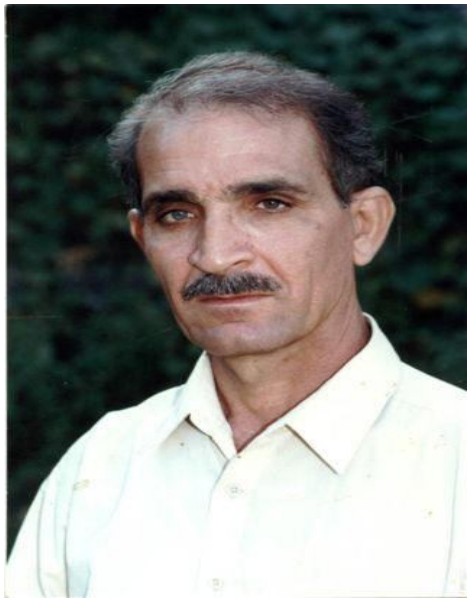

. ولد في منطقة بنكورة التابعة لقضاء خانقين عام 1951.

. أكمل المرحلة الإبتدائية عام 1963 في مدرسة قرية كوره شلة الإبتدائية للبنين على ضفاف نهر سيروان.

. أكمل المرحلتين المتوسطة والإعدادية في مدينة خانقين عام 1969 ـ 1970.

. إلتحـق عـام 1970 بالقـسم الكـوردي بكليـة الآداب بجامعـة بغـداد ونـال شـهادة البكالوريوس في اللغة والأدب الكورديين عام 1974.

. يكتبُ منذ عام 1970.

. نشر نتاجاته الأدبية من قـصائد ومواضـيع ومقـالات متنوعـة في الـصحف والمجـلات الكوردية وتـرجم العديـد مـن نتاجـات الـشعراء والقصـصيين الكـورد إلى اللغـة العربيـة ونشرها في الصحف والمجلات وفي المواقع الإلكترونية.

. أصدر الدواوين والمجموعات الشعرية والقصصية والتراجم التالية:

. ديوان أمواج الألحان، بغداد، 1978، بالكوردية.

. ديوان رماد النجوى، بغداد، 1980، بالكوردية.

. ديوان المعبر، بغداد، 1986، بالكوردية.

. ديوان لن ترحل الشمس، بغداد، 1987، بالكوردية.

. قصة العاشق غريب، ترجمة، مشترك، 1987، إلى الكوردية.

. ديوان الغزلْ، هولير، 1997، بالكوردية.

. ديوان أسطورة التفاح، هولير، 2005، بالكوردية.

. الإعراب في اللغة الكوردية، هولير، 2008، باللغة الكوردية.

. نصيحة الأم، قصص مترجمة إلى اللغة الكوردية للأطفال، هولير،2010.

. عقد الؤلؤ، قصص من تراث الشعوب، ترجمة إلى اللغة الكوردية، هولير، 2010.

. حورية الغابة، قصص من تراث الشعوب، ترجمة إلى الكوردية، هولير، 2010.

. مجموعة الرعد القصصية، باللغة الكوردية، منشورات وزارة الثقافة والشباب في إقليم كوردستان، هولير، 2011.

. رواية (الثلج يأتي من النافذة) لـ(حنا مينة)، ترجمة إلى الكوردية، هولير، 2011.

. ديوان (كذبة أخرى) للشاعر (زانا خليل)، ترجمة إلى اللغة العربية، هولير، 2011.

. مجموعة رهيل الشعرية ـ الأعمال الشعرية الكاملة ـ على نفقته الخاصة، مطبعة شهاب، هولير 2012.

. (شدو القبج)، ترجمة قصائد كوردية إلى العربية، دار الغاوون، بيروت، لبنان، 2012.

. حقوق المعلمين وواجباتهم: تأليف كنيث إيرلاند، ترجمة عن العربية، مطبعة وزارة التربية، هولير 2012.

. مجموعة (إبن الجبال) القصصية، وهي مجموعة قصص مترجمة من اللغة الفارسية والعربية، وزارة الثقافة والشباب في حكومة إقليم كوردستان، مطبعة وزارة الثقافة، هولير، 2012.

. مجموعة قصص كوردية مترجمة إلى العربية، المركز العام لإتحاد الكتاب الكورد، هولير، 2012.

رواية (عندما تتداعى الجبال، العروس الخالدة)، جنكيز أيتماتوف، مترجمة عن العربية، دار جيني للطباعة والنشر، هولير، 2013.

. رواية (جاوةزار ـ التعويذة) باللغة الكوردية من تأليفه ومترجمة من قبله إلى العربية أيضاً، معدة للطبع.

. رواية (السيد الرئيس) ميغيل أنخل استورياس، مترجمة عن العربية، معدة للطبع.

. رواية (بروكلين هايتس)، للكاتبة المصرية ميرال الطحاوي، عن العربية، معدة للطبع.

. عمل صحفياً في دار الثقافة والنشر الكوردية ببغداد من 1976 لغاية 1989 بصفة مترجم.

. نقل عام 1989 ليشغل مسؤول فرع الدار في أربيل.

. أنتسب بعد إنتفاضة ربيع عام 1991 إلى وزارة الثقافة في إقليم كوردستان.

. نقل عام 1992 إلى وزارة التربية في حكومة إقليم كوردستان بعنوان مدرس اللغة والأدب الكورديين وقام بالتدريس في إعدادية صناعة أربيل وإعدادية ميديا للبنات.

. نسب عام 1994 للعمل في مجلة آفاق تربوية الشهرية باللغة الكوردية والعربية بوزارة التربية.

. نقل عام 2007 خدماته نهائياً إلى مجلة التربية والتعليم بديوان وزارة التربية.

. يشغل مدير التحرير في المجلة أعلاه.

. عمل منذ عام 2003 محرراً للأخبار في القسم العربي بفضائية كوردستان ويعمل حالياً في قسم الأخبار باللغة الكوردية بفضائية كوردستان.

. عضو نقابة صحفيي كوردستان.

. عضو نقابة معلمي كوردستان.